انمار رحمة اللّه

صوحة الكومبندانور

قصص

تموز

عودة الكومينداتور

١

جميع الحقوق محفوظة

الكتاب: عودة الكومينداتور

تأليف: أنمار رحمة الله

الطبعة الأولى: ٢٠١٢

صورة الغلاف : Amadeus film

تصميم الغلاف: صفاء مرزة

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد : ٧٣٥ لسنة ٢٠١٢ م

طباعة. نشر. توزيع

دمشق/ جوال: ٠٠٩٦٣ -٩٤٤٦٢٨٥٧٠

Email: akramaleshi@gmail.com

انمار رحمة الله

عودة الكومينداتور

قصص

القسم الاول

العائد

ليلة ضاع فيها الرغيف

العراة

اللعنة

هذا ماحدث في المقبرة

أوراق متناثرة

الساهر

قتلت عصفوراً مرتين

السحابة

العائـــد

حين فتح عينيه ، صُدِمَ بلون اسود يصبغ المكان ، والمشيعون قد رحلوا تاركين وراءهم جثةَ من شيعوه ودفنوه قبل دقائق رتيبة ، ولم يعد هناك سوى امرأة بعيدة تضج بالبكاء ، صنعتْ نسوةٌ مولولات حولها دائرةً إلى جانب قبر حديث ، ومنظف يجول بين القبور يجمع أوساخاً خلّفها الزائرون ، وشيخٌ يحمل بيده كتاباً مقدساً ، ينفّسُ به عن ضيق النائمين وخوفهم وسفرهم الطويل. الإحساس الأول الذي ظَهَرَ ، ضيقٌ في التنفس يهجم رويداً رويداً ، ورائحةٌ عجيبة تملأ المكان الضيّق الذي لا يتسع إلا لنفر واحد(لعله حلم؟) سأل نفسه وهو يحرك يده الخادرة ليكتشف بعد ثوان انه فعلا قد دُفِنَ وانه سيواجه أسوأ تجربة ستمرّ به في طريق حياته الذي

التصقت به المفاجآت كالأرصفة برودة المكان تغازل جسده المُلقى تحت التراب ، لتعانقه أخيراً فيزول استغرابه عن سبب البرد ، وإذ لم يقتله البرد سيقتله طمعُ القبر بالأوكسجين الذي سيُقدّرُ بالذهب بعد مدة وجيزة ، وإذ لم يقتله الجو الخانق سيقتله الجوع أو العطش ، وإذ لم يقتله الجميع سيفتك به الصمتُ المطبق الذي أوشك أن يسلبه لبّه

يحاول أن يخدع ارتباكه ، فيدير رأسه المثقل قليلاً ، ولكن عبثاً يحاول ، لأن اللحد الذي أحكم عضته كتمساح ، لن يسمح لضحيته (الرأس) بالمغادرة ، بل الانتظار إلى وليمة الدود المتكررة

هل سأستسلم ـ؟) سؤالٌ أخافه من واقع جديد لم يألفه ، ومشكلة ليست كالمشاكل التي واجهته في حياته ، كـ(أريد مصروفاً للمدرس الخصوصي /وفّر لنا مالاً لأشتري عقداً ثميناً كالذي لدى جارتي اللعينة/ سيدي ثمن الخبز بـ /أنا موظف الكهرباء وعليكم قائمة بـ / الحر/ البرد/ أصوات البائعين/لعنات النسوة والشيوخ المتجمهرين على أبواب الدوائر الحكومية مشكلة من هذا النوع لم تصادفه ، حيث لم يألف الناس أن أمواتاً يصحون بعد موتهم ، ولعل تلك الحادثة التي هزّتْ مدينته في تلك

السنة ، حين فتح أحد الموتى عينيه على المغتسل ، هذه الحادثة الوحيدة التي أثارت ضجة كبيرة منذ زمن بعيد ، ولو قارنها بحالته فالسابق أوفر حظاً منه ، ومن ضمنها أن الأول اكتشف النّاس رجوعه للحياة قبل غسله وتشييعه ودفنه

اللحظات تقرع في أذنيه كالطبل ، والتساؤلات تحيط به كذئاب مفترسة من كل جانب ، ماهو مشروعي المقبل للخلاص من محنتي هذه؟) سأل نفسه في هذه اللحظة المليئة بالجنون ، من سيفتح عليّ باباً من التراب؟ ومن سيفكر بي والكل قد ناموا ليلتهم متناسين الرجل الذي يرقد الآن كما يظنون تحت لحاف التراب ، من سيفكر بأن الحياة قد عادت إليّ من جديد ليزورني ويزيح عن كاهلي عبئاً هو الأثقل في العالم؟) اليأس يتسلل إلى مغارة روحه المظلمة تحسّست روحه المخنوقة ذكرياته الماضية ، مرّتْ كأنها شريط سينمائي مصور ، منذ اليوم الأول في المدرسة (رحبوا بالتلميذ الجديد) هكذا نطق معلمه الطويل ، المشتعل شيباً ، ذو العطر والهيئة اللتين يأتي بهما كل صباح ، والأطفال المعبؤون برائحة العرق والرغيف والمرق ، ومطالعتهم للطفل الجديد وكأنَّه نزل من الفضاء لعل الحبس الانفرادي الجديد ذكّره بطفولته

الغائبة ، ففي الحالتين تلاقفته أحضان حنونة دفيئة ، في طفولته نام في حضن أمه المرأة ، وألان هو ينام في حضن أمه الأرض.

تذكّر كل شيء ، أصدقاءه /أمه/ أباه /زوجته التي لا يعرف أي ثقل سيمرُّ عليها ووحشة من دونه / شارعه /عمله/ كتبه ــ كتبه الثمينة التي فرّط بها وليتها تأتي إلى صديقها القديم لتنقذه ، تلك الكتب التي ما ثمّنها إلا هو ، ولما تزل على الرفوف البليدة هنا وهناك مع مجموعة ضخمة من الحاجيات النادرة ، والتي باعها كلها دفعة واحد ، المكتبة والكتب والأشياء النادرة لديه ، لتسديد أجور مادة (البلاتين) الثمينة التي زرعها في ساقه احد الأطباء المشهورين في مدينته .في ذلك اليوم حزن حزناً شديداً لأنه ضحّى بكل ما يملك من كتب ثمينة ، من أجل الحصول على قطعة معدنية بحجم التينة أو أكبر بقليل ، وعاد ليضحك ضحكات خافتة بعد انتهاء العملية ، حين اكتشف أن كل الكنوز المعرفية وكل تلك الكتب الثمينة ، تساوي قطعة بلاتين تافهة في نظره ، وكل ما قرأه وتعلمه باعه ولم يصل لثمن البلاتين المغرور .

يفزع الرجل تحت التراب وهو ينتبه لكمية الأوكسجين التي بدأت تقلُّ وتنفد لتصبح ثمينة إلى أبعد الحدود تنتابه

رغبة الصراخ /البكاء/العويل. ولكن الرغبة في الخلاص تؤجل كل مشاريعه لاحقاً ، وتقف شاخصةً أمامه بلا حراك. يداه تخربشان بحزم وجهَ التراب الصامت ، لأن الحياة تناديه كعروس بكر ، في الجانب الآخر من ضفة الدنيا ، جالسة كحورية بحر تمشّط شعرها الأشقر. كيف أنجو؟ ـ كيف أنجو؟) بدأ يستنطِق عقله ليدلّه على طريق نجاة ، فالحياة تهرول مسرعة ، وسلسلة الزمن أصابها الهذيان حين تحولت الثواني إلى دقائق والدقائق إلى ساعات. وحيداً يصارع كي لا يصل ذلك الزائر المخيف الذي يدعونه الموت ، إلى بستان روحه المعشوشب. الوقت يمرُّ والنّفَس يضيق وهو يفكر ولكن بلا جدوى ، هناك بدأ النعاس يقترب لينقضَّ على فريسته النائمة بلا حراك ، تسلل شعور اليأس إليه ، حين أحسّ ببرودة تغزو أطرافه ، وخدر يغفو على صدره. فتح عينيه بقوة ودهشة بعد أن التقطت أُذناه المتربتان دبيباً ، حرّك الدم في عروقه وهو يتحسّس تلك الأقدام الخفيفة على القبر (إنها أرْجُل ـ؟!) سأل نفسه مستغرباً ، وبالفعل بدأ التراب يقلّل حمله الثقيل ، حين تهاوت الحركات الحافرة فوق سطح الأرض ، معلنةً نبش القبر بسرعة جنونية ، حتى كُشفَ خمارُ التراب وبان وجه السماء ،فتسللت نسائمُ إلى

جوف القبر لتلاطف رئته المخنوقة فتح الرجل عينيه على مهل /تراخت أعضاؤه واكتفى بالنظر إلى الأكف التي أزاحت عنه القماط الأبدي ، و إلى المصباح الذي يصرخ متوهجاً ، فالوقت أشاح عن وجه الليل ، والشبحان اللذان نبشا القبر واقفان قربه بلا حراك ، وكأنهما جذعا نخلتين ، لم يعلم الرجل المدفون ولم يسأل لماذا؟ولم؟وكيف؟عرف النابشان أنه على قيد الحياة فنهض على مهله متأوه /نافضاً ترابه ، ولم يدر انه قذف ثلاثة أرباع الخوف في قلبي الرجلين اللذين وقعا على مؤخرتيهما ، وهما يصرخان من شدة الفزع دقّق الرجل العائد النظر في وجهي الرجلين ، فلم يعرف لماذا تصرفا بهذه الطريقة ، وهل يعلمان؟ صحيح كيف علما) إستفسر وهو يقترب منهما وهما يبتعدان ببطء ، رفع الضوء الذي سقط من يد أحدهما ليرى وجهيهما ، فأطلق ضحكة عالية ـ عالية جداً كادت تحيي كل الأموات ، حين اكتشف أن الشبحين اللذين نبشا قبره هما ، دفان المدينة المعروف والطبيب الذي زرع في ساقه البلاتين.

نشرت في ملحق أدب في جريدة الصباح العراقية سنة ٢٠١١

ليلة ضاع فيها الرغيف

الذاكرة مرفأ الخيالات ، يعصف بحرُها ويستكين. يقلّبُ الماضي على راحتيها الأوجاعَ/الأماني/البكاء/الشعور التائه في عالم أثيري عميق. فصعبٌ هو مصارحةُ الذات ، والأشدّ صعوبة الاسترسال في عدم نكران الواقع. وخصوصاً إن من تخصّهُ الحكاية رجلاً ستينياً يودّع زمناً غابراً ، ويمارس الحياة في بساطة مألوفة لعمره الشائخ. الشتاءُ عانق المدينة ، طابعاً على خدها الأسمر قبلاً باردة. كنت طفلاً أراه كالباقين قرب المدفئة ، يتصفّحُ كتاباً أو صحيفةً أو يعتكِفُ كناسك يرسل أنظاراً بعيدة من خلال النافذة المطلة على البساتين النائمة. كنتُ أراقبه عن كثب حين يبكي من دون سبب ، خافياً بكاءَهُ عن الكبار ، ومسترسلاً في دموعه أمامي غير آبه ، بحكم أني صغير وغير مكترث لدموع رجل عجوز ، وهو الآخر ينظر

اليّ النظرة ذاتها دون اهتمام

مازلتُ اتذكّرُ صوته البعيد ، وارتعاشَ يدهِ الشائخة سألني ليلتها عن حال المدرسة وهموم المذاكرة ، وكفي تخطُّ على الورقة خطوطاً لا اعرفُ مغزاها ، سوى أن الحركةَ كانتْ تحولُ بين عينيّ وعينيه اللامعتين "بخير" أجبته ببساطة

صمتَ برهة فانتبه إلى نظارته وقد تلطختْ بدمعه المترقرق فأنزلها ماسحاً زجاجها القديم وأرجعها ثانيةً فعاجلته حينها بشغف طفولي: -

- جدي ـجديـلماذا تبكي .؟!

بانتْ ابتسامةٌ على وجههِ المتعب ثم ربّتَ على كتفي ، اعتدلتُ في جلستي وبدأت أطالعُ قسماتِ وجههِ وهو يزفرُ تأوهاً حين ذكر "الماضي" وقصةً أشرقَت في كلامه كشمس خجولة .

توَسّلتُ إليه راجياً أن يقصّها لي ، فما هي إلا ثوانٍ وانفرجتْ الستارةُ في مسرحِ الذّاكرة معلنةً هي الأخرى تأوهات خفية في اللاشعور حيثُ استطردَ قائلاً:

- حين كنتُ شاباً وكان علي لزاماً أن أكملَ خدمتي العسكرية تعلّقتُ بصديقٍ حنون لي في تلك المحنة

قاطعتهُ مستفسراً عن اسم صديقه فأجاب:

-لا يهمنا اسمه ، فالأسماء لوحات رخام نخفي تحتها قبورَ الأرواح) لم افهمه في تلك اللحظة وتركته يكمل حديثه مبحراً

كان صباحنا يعلنُ بدايةَ يوم شتوي جديد ، وكانتْ الطيور تحلّقُ فوق كتيبتنا ، تطالعُ تدريباتنا الصباحية الرتيبة ، نقفز ونتمرن ونهرول غير آبهين بالبرد ، كنّا متحابين تجمعنا شفافية الوئام والحب والصفاء كنتُ وإياهُ بمنأى عن الباقين ، فقط أنا وهو ؛ نأكلُ وننام ونحكي وقتَ الغروبِ حكايات عن مدننا وقرانا البعيدة ، فتارةً يحكي لي عن حبٍ أرّقهُ ، وتارةً أحكي له مشاعري وحكايات حب انتهتْ يوماً ولم تفلحْ كانتْ حياتنا سعيدةً بالرغمِ من تعاسةِ المكان ، وتكالبِ الهمومِ الوطنية التي جمعتنا في معتقلِ الرتابة والواجب

اعتدلتُ في جلستي بعد أن رَعدتْ السماء ، نظرت إلى وجه جدي الخافت مستفسراً في استغراب

- ولكن يا جدي ماالذي يبكيك في هذه الحكاية .؟

وضع الرجل العجوز نظارته على الطاولة المجاورة ، ثم فرك عينيه بهدوء مستذكراً

- مرتْ علينا ذاتَ شهرٍ أيامُ جوعٍ وقحطٍ ، بسببِ بعد موقعنا البائس ، فتكالبُ الطقسِ علينا قطعَ الإمدادات

من معونة وإعاشة دورية ، وتكفّلَ الشتاءُ بالباقي ، حين أذابَ ما أخفيناه من طعام وشحوم وعزيمة ، وبعد أيام ظهرتْ بوادرُ الخير حين لاحتْ لأعيننا مركبةُ الإعاشة من بعيد ، عادتْ كـ (سانتا كلوز) محملةً بالهدايا للجائعين في يومها لم تسعنا الفرحة ، لقد كنّا على مشارف الموت نتيجة الجوع ، قلت لصديقي "سوف نأكل حتى نموت من الشبع" ضحكَ صديقي وحمدَ اللهَ بوجودي معه في محنتنا تلك وصلت المركبةُ المتهرئةُ إلى باب الكتيبة اليتيمة ، ثم اغلق السائقُ بابَ المركبة بقوة ، وسلّمَ على الموجودين ، قاصداً مقرّ الإعاشة ، ومبلغاً أن ما بحوزته أرغفة خبز لا أكثر ، صُعِقَ الجميعُ بهذا الخبر القاتل ، وتنازلَ بعضُهم عن نواميسه الكبرى كافراً بكلّ مقدّسٍ في الوجود ، واستغفرَ بعضُهم ربَه صابراً على ما أصابه من ضيمٍ ، وأنا وصديقي نتفرج على مهزلةِ الجوع الأليمة ، لا نعرفُ أنبكي؟ أم نضحكُ؟

وُزِّعَتْ أرغفةُ الخبز حيثُ أخذ الآمرون حصتهم المألوفة ، ومن ثم تمَّ توزيع الباقي على من لهُ يدٌ وذارع مفتولة ولسانٌ فاتك همسَ صديقي في أذني (سوفَ اجلبُ لنا رغيفين نخرس بهما جوعنا) هرولَ إليهم مسرعاً علّه يخطفُ قرص رغيف بائس ، أنا لم أفعلْ شيئاً

سوى رجوعي إلى قاعة المنام منتظراً الموتَ أو وصولَ قافلة إمدادات أخرى. عادَ صديقي مبتسماً وبحوزته قرصُ رغيف واحد ، جلسَ قربي وهو يحكي قصةَ مغامرتِهِ للحصولِ على الجائزة ، ومصارعةِ الباقين وخطف لُقيمات تخرس صوت الألم في غابة الجوع المظلمة. وضعَ الرغيفَ أمامي طالباً مني الأكل ، ولكني رفضتُ معلناً صبري على الحال ، متعاطفاً معه ، فقرصُ رغيف واحد لا يكفي لرجلين ، توسّلَ بي أن أشاطره فرفضتُ مجدداً ، وأخبرته أني سوف احصلُ أيضا على قرصِ رغيف آخر ، ثم خرجتُ ولعلَّ في خروجي أملاً وجدوى. تركته وحيداً فَرِحاً بالنصر ، فلمْ نحاربْ في تلكَ الكتيبة عدواً إلا الجوع ، وقد هُزِمْنا شرَّ هزيمة.

عدتُ إليه صفر اليدين ، سألني باستغراب (هل حصلت على شيء؟ فأجبته نعم) ، ولم أخبره أني مهزوم رجعت ، سألني عن رغيفي فأجبته (أكلته في الطريق).

خيّمَ الليلُ وشيكاً خافياً تحتَ لحافه أنّات متفرقة لبعض الجائعين ، مثلي طبعاً لم يفلحوا بالوصول إلى بغيتهم ، صديقي أخفى رغيفه في حقيبته البسيطة ، ثم توجَّه للصلاة شاكراً ربَه على ديمومة الحياة ، كنتُ أراقبه عن كثب ، فقد أوصاني ألاَّ أفارقَ الحقيبة ، وخصوصاً أن

فيها بعضَ ما يملكُ من أشياء ، وأهمها رغيفُ الخبز الثمين.

أكملَ صلاته وشكرني على صبري ، ثم توجهت أنا بدوري إلى خارجِ المكان لقضاء بعض الأشياء ، وإذا بصوت صديقي يعلو من داخل القاعة ، رجعت راكضاً إليه ـ ماذا حصل ـ ماذا حصل.؟)سألته في عجلٍ فأخبرني أن رغيفه سُرِقَ ، سألتُهُ هل رأيتَ الشخص الذي أخذه .؟قال ـلا لم أرَه). بدأ صديقي يسأل الباقين ، يستحلفُ هذا ويقسم على هذا ، من أخذ قرصي الوحيد) يصيح بصوت عالٍ ، بدأ يفقدُ أعصابَه /يشتم/ يبصق / يلعن سارقَ الرغيفً ، والكلُ في صمت نائمون/مستسلمون للجوع والقدر. سألته هل وضعته في مكان آخر .؟ أجابني بـ(لا ـلا).

رجعَ صديقي إلى فراشِه مستسلماً هو الآخر للجوع ، وغطَّ في نومِه كعصفورٍ مكسور الجناح.في تلك الليلة الكلُ نام في هدوء ، إلا إنا بقيتُ ساهراً حتى الصباح أستشعر أسراباً من الملائكة تهبطُ على قاعة المنام ، حاملةً روحَ صديقي العزيز إلى عالمٍ أنقرضَ فيه الجوع والحسد والأنانية ، لم اعرفْ ليلتها هل رحل بسبب الجوع؟ الألم؟ أم الضياع والحُرقة؟ نعم سهرتُ ليلتها وأصبحتُ

بـلا صـديق ـ بـلا رفيق ، لقـد رحـل إلى عـالم الخـلاص وتـركني وحيـداً أمـضغ آلامـي وأرى أيـامي تتآكـل حزنـاً ونـدماً رحـل ذاك الـصديق ، ولم يـشبعني رغيـف العـالم كله ، ومصيري أن أظل جائعاً إلى صديق حنون

توقـف جـدي عـن الكـلام سـارحاً في عـالمٍ بعيـد ، فانبريت له سائلاً بفضولٍ شديد:

- ولكـن ـ يـا جـدي هـل عرفـت مـن سـرقَ قطعـةَ الرغيف؟

نكّسَ رأسه بحزنٍ عميق ، ونَبس في استحياءٍ كالأطفال مشيرا إلى صدره:

- أنا

نشرت في جريدة الصباح العراقية سنة ٢٠١٠

العـُراة

نهـض "ثـائر" فَزِعـاً مـن سـريره ، بُعيـدَ انتـهاء حلـم غريـب ، حـين رأى المدينـة الـصغيرة الـتي يـسكن فيهـا ، وأهلها يسيرون في الأسواق عُراةً غير مكترثين. دلك عينيـه وهـزّ رأسـه ليـستعيد صـحوته الخاملـة. نهـض مـن سـريره على مهل ، ليرشف قليلاً من الماء الذي وضعه إلى جـوار رأسه ، مكمـلاً مسيرته المرسومة كل صباح. ثائر هو الولـد الوحيـد لأم وأب والأخ الأكـبر لأخـت واحـدة. لم يكمـل المرحلة الإعدادية بعد ، وهو الآن يجهّز نفسه لمغادرة المنـزل والذهاب للمدرسة الـتي تبعـد مـسافة قـصيرة عـن منـزلهم البسيط.سلّم على أمه وجلس على مائدة الطعـام ، والحلـم مـازال يطـوف كالإعـصار ببحـر مخيلتـه ، لفـت انتباهـه خـروج أختـه إلى مدرسـتها بـلا حجـاب يـستر رأسـها ، فتدارك الأمـر وصـرخ بـلا وعـي بحـضرة أمـه وأبيـه اللـذين التحقا بمائدة الطعام (ما هذا؟! ، أنها خارجة إلى الشارع

بلا حجاب ـ أمي ـ أبي انظرا إليها) ، تجيبه أمه مهدّئة ومبرّرة (لا عليك يا بني ، إن الحجاب قماش لن يضر ولن ينفع ، ثانياً الم تسمع عن مخاطر الحجاب التي ملأت أخبارها التلفاز قبل عدة أيام ، وإنه المخبأ الدفين لكثير من الأمراض التي تصيب الدماغ ، فأعلنت إدارات مدارس البنات إنَّها ستمنع الحجاب لأجل غير مسمّى) ـ ولكن أين حدث هذا ـ؟) تمتم مخاطباً نفسه ، فاستدرك الموقف أبوه وقال له (المهمّ نحن من يعلم لا أنت ، اذهب إلى مدرستك ولا تكترث أبدا) ـ

خرج مذهولاً إلى مدرسته ، وحين دخل ساحتها انتبه إلى أن اغلب الطلاب المتناثرين قد خلعوا قمصانهم واكتفوا بلبس البناطيل ، منظر لم يألفه من قبل ، وأقسم على أن هؤلاء الطلاب سيواجهون عقوبة ستردعهم بها إدارة المدرسة على صنيعهم ، لكنه صُدِمَ من جديد حين خرجت الإدارة في الاصطفاف الصباحي ، لتعلن أن الطلاب الخالعين قمصانهم هم الطلاب الأكثر تطبيقاً للأوامر ، وأنهم الأكثر التزاماً واحتراماً للمدرسة ، لطم ثائر جبهته متعجباً وسأل احد الطلاب الواقفين إلى جنبه ماذا يحدث ـ؟) أجابه الطالب ألا تعرف ـ؟ الإدارة أعطت أوامرها للطلاب بخلع القمصان ، فهي تسبّب قلة

الفهم والذكاء نتيجة مضايقتها اللصيقة بالفؤاد ، ولن تساعدهم على الدراسة لم يصدّقه ثائر ، وانتظر مدرس التربية الدينية الملتزم ، والذي سيضع حداً لهذه المهزلة ، دقَّ الجرس ودخل الطلاب الصفوف ، وكانت الحصة هي التربية الدينية حين دخل المدرس ، ذو اللحية المقلّمة بإتقان ، والوجه الفائض نوراً ودماثة ، صُعِقَ ثائر حين طالع مدرّسَهُ يدخل الصف بلا قميص ولا سروال ، ووقف في منتصف القاعة الدراسية وبدأ يلقي محاضرة في فضيلة خلع السروال ، وإنه من المستحبات أن يخلع الرجل سرواله والمرأة (تنورتها) ، مما دفع بثائر إلى الركضِ ورفسِ بابَ القاعة والخروج إلى الشارع مهرولاً إلى منزله بلا رجعة

حين أدار أبو ثائر محطةَ التلفاز ، كان المذيع قد انتهى من عرض خبرٍ لجماعة متطرفة تطالب بخلع الملابس ، ومن لم يخلع ملابسه نصرة للجهاد ، سيواجه عقوبة القتل بتهمة التشجيع على النكوص والتهاون سأل الشاب الحائر أباهُ ما علاقة خلع الملابس بالجهاد ياأبي؟) أجابه أبوهُ يا عزيزي يعتقد هؤلاء أن الملابس تعتبر ساتراً خبيثاً للأشياء ، وان رجوع الإنسان إلى طبيعته الأولى ، سيمنع حدوث الكثير من المشاكل ، ما أجمل أن نرجع إلى طبيعتنا /صفائنا/

على طريقة هؤلاء الفتية المجاهدين) لم يقتنع الشاب أبداً بما يدور حوله ، فنهض كالمخبول لابساً ثيابه التي تأملها طويلاً ، وخرج من المنزل يحثُّ الخطى إلى جامع المدينة الذي يقيم فيه الصلاةَ شيخٌ جليل ، وله كلمة مسموعة لدى الجميع ، دخل ثائر الجامع وكاد يقع على الأرض حين رأى المصلين تصلي خلفه عُراة لم يرتدوا شيئا ، تمالك أعصابه ، ووقف ينظر إلى الشيخ الذي اعتلى المنبر عارياً(ربي كما خلقتني) ، ليتحدث للناس عن فضيلة خلع الملابس ، وإن الله سيحشر الناس عُراةً يوم القيامة ، وإننا يجب أن نتعرّى في هذا الوقت ، لكي نرجع إلى سابق عهدنا الأول ، منذ أن خلق الله آدم ،كان عارياً ولم يرَ عورته إلا بعد الخطيئة ، وأننا بخلعنا ملابسنا سنثبت أننا غير مخطئين بإذن الله خرج الشاب مهرولاً وهو يرى الناس في شوارع المدينة عُراة ،البقال يبيع الفاكهة وعورته ظاهرة ، وامرأة تدلى نهداها وهي تسير غير مكترثة ، شرطي المرور وقف عارياً في منتصف الشارع ، ينظم سيرَ السيارات التي يقودها رجال عُراة ، الطالبات والطلاب يسيرون في الشوارع عُراةً يحملون كتبهم ، العمال/ أصحاب المخابز/ الأساتذة / النجارون) كل الناس بدوا غير آبهين للموقف ، ولا ينظر أحدهم إلى أخر سوى ثائر الذي كان هرول في الشوارع محتفظاً

بملابسه ، وأقسم أنه لن ينزعها حتى لو كلفه الأمر حياته هرول إلى منزله وقرر ان يحبس نفسه ، حتى ينتهي هذا الكابوس. لكنه عند وصوله إلى المنزل تفاجأ بمنظر أمه وأبيه وأخته خارجين من المنزل وهم عُراةً ، صُدِمَ /تسمّرَ في مكانه حين أخبرته أمه أنهم ذاهبون إلى زيارة أقربائهم ، بدأ ثائر بالصراخ والعويل ، وأوعدهم بالويل إن لم يدخلوا المنزل ليرتدوا ما خلعوه من ثياب ، فهدَّأته أمه قائلةً بني لا تتهوَّر. إخلع ملابسك واذهب معنا) ، ثم قال أبوه محذراً من الفضيحة انظر إلى نفسك وأنت ترتدي ملابسك. ماذا ستقول علينا الناس.؟) لم يحتمل الابن المنظر فهرب مجدَّداً ، تاركاً خلفه صراخ العائلة ونداءهم

فتح الشيخُ المسنُّ البابَ لثائر اللاّهث ، ادخله إلى منزله ، وهو يعتب عليه لبطئه وعدم زيارته طويلاً ، الشيخ المسنّ هو أحد الحكماء في المدينة ، يعيش العزلة ، فقصده ثائر هذه المرة ليخبره بما جرى ، وماذا عليه أن يعمل ، جلس الإثنان في زاوية الغرفة المليئة برائحة البخور ، حينها لفت إنتباه ثائر أن الشيخ الحكيم لم يخلع ملابسه ، ويرتديها كاملة ، سأله بشغفٍ هل ستخلع ملابسك يا شيخ.؟) أجابه الشيخ مبتسماً يا بنيَّ العالم في الخارج لا يهمني ، فأنا اكتفيت بوحدتي وعزلتي هذه ، ولن أكترث لما يدور

هنـاك مـن ضـجيج ، إنهمـا عالمـان ، فأيّهمـا تريـد أن تـسبر غورهـ؟ إذا أحببـت أن تعايشهم فـاخلع ملابسك عنـد بـاب بـيتي وأخـرج ، وإذا أردت أن تحـتفظ بـسترك ، فاصـنع لـك معزلاً كهذا ، وعشْ إلى أن يفارقك النفس الأخيرـ تحيّر ثـائر كـثيراً ، وجالـت في مخيلتـه الأفكـار ، حـين رأى العجـوز الـشيخ ، يحـدّق بـالأرض وفي عينيـه بحـران تلاطمـت علـى جرفيهمـا أمـواج الحـزم والحكمـة ، فنـهض ثـائر علـى مهـل وإتجـه إلى البـاب ، ويـداه تراودانـه عـن ثوبـه المتعـب ، فلـم يـستجب لنـداءات العـري في الخـارج ، بـل أقفـل الأزرار الأخـيرة في ياقتـه ، ورمـق الـشيخ بنظـرة أخـيرة ، حينـها بادلـه الشيخ ذات النظرة مع إبتسامة خفيفة حرّكت لحيته البيضاء كـالثلج ، وخـرج إلى عزلتـه وعلـى شـفتيه قـسم طـريٌّ بعـدم المطاوعة أبدا

في صـباح اليـوم التـالي فُـزعتْ الطالبـات المحجّبـات والنـسوة المحتـشمات ، والباعـة الجوالـون ، وشـيخ الجـامع المتـشح بعبـاءة الـصلاة ، ومـدرس التربيـة الدينيـة الوقـور ، وجموع النـاس المعتنيـة بالأناقـة ، وأب وأم وأخـت ، حـين رأوا شاباً مجنوناً يجول في الشوارع عارياً بلا ثياب

القصة منشورة في جريدة "تاتو" سنة ٢٠١٢

اللعنة

لم يصدق الجالسُ في غرفته وحيداً ، أن الوقت مرَّ من أمامه من دون أن يفعل شيئاً أو أن يحرّكَ ساكناً حين لم يتبقَ إلا ليلة واحدة تفصل بينه وبين الموت ، ذلك المخلوق الداكن المخيف ، الذي تهابه الكائنات ، وتكره لقاءه الأرواح تساءل وهو يحكُّ خدَه برفق عن شيئين يلحّان عليه ، الأول موعد هام يتكرر عليه كل ليلة نسي تماماً ملامحه ، مع من؟ وأين؟ ولماذا؟ والثاني نسيانه لإسم المرأة التي دخلت إلى غرفته ، ووضعت أمامه طبق طعامه البسيط ، حاول مناداتها باسمها ، ولكن لسانه تخاذل كما تخاذل من قبل عدة أشهر حين أراد أن ينادي على رجل مرَّ من أمام دكانه في السوق الكبير (أنا اعرفه جيداً إنه صديق قديم) ، ولما يئس من استحضار اسمه جلس متحيّراً في سبب نسيانه ، ثم عاد إلى حياته اليومية غير مكترث ، مادامت الدنيا تعطيه كولد مدلل ، وما دام

الدكان ينثر على رأسه النقود بلا حساب أو مشقة ، مع انه يعيش كالمحتاج مع كل الثروة الكبيرة المختفية في بواطنه وسره لكن تحيّره زاد هذه المرة وصار مقلقاً لما نسيّ أي الورقتين النقديتين عليه أن يرجعها إلى متبضّع ريفي وقف طويلاً ينظر إلى العملتين اللتين بدتا متشابهتين في نظره ، مما دفعه لسؤال المتبضع : ماذا أُرجِعُ لك ؟.

لم يزرْ طبيباً في حياته ؛ مبرراً أن النقود لا يجب إحراقها في تنّور الأطباء ، ولم يساعد فقيراً في يوم لاعتقاده أن الفقراء لهم ربٌّ يعطيهم قليلُ الأكل لا يحب التبذير ، من البيت إلى الدكان يروح ويرجع مشْياً حتى لو كان الجو ساخناً كالجمر أو بارداً كالثلج الشيئان الوحيدان اللذان عكّرا مزاجه/ أرهقاه /أتعباه ، ألمٌ و التواءات يتربصان به كل حين ، ونسيانه للحاجات والأسماء والذكريات التي عاشها ، حين بدأ يتسلَّل الأخير إلى غرفة ذاكرته كاللص في الليل الحالك ، ولم يدع له صغيرة من ذكرياته إلا وسرقها ، تاركاً الكبيرات إلى موعد آخر ومناسبة أفضل النهر الذي تمدَّد على شريطه الرملي الناعم سنينَ عديدة ، نسي أسمه أيضاً ، وحين أراد استذكاره في مجلس كبير صمت ، لأنه خشي

ضحكات الأصحاب والجلّاس ، حتى أنه نسي أسم صديق له ، سرقه النهر ذات صيف ، حين كانوا صبية يسبحون ، وعبثاً حاول استحضار اسمه /لقبه /أو حتى ملامحه التي بدأت تذوب من على جدار ذاكرته المتآكل ، كما تذوب الأصباغ الرديئة المصيبة الأشد أنه يذكر دفعة واحدة حين لا يريد التذكر وينسى حين يكون محتاجاً للذاكرة ، فيظل يبحث عن التّذكار كما يبحث المدمن عن شيء يُخَرِس صراخ إدمانه

أخيراً اقتنع بوجوب الذهاب إلى الطبيب الذائع الصيت ، التقط أفضل الملابس عنده وكأنه سيشارك في حفل زفاف ، فرَّشَ أسنانه المصفرّة ، واقفل الباب خلفه متجهاً صوب الشارع المؤدّي إلى عيادة الطبيب بعد إنهاء الطبيب لفحوصاته اخبره أن المزيد ينتظره وستنتهي الفحوصات كاملة بعد أسبوع (دكتور-عندي سؤال أخير) هكذا نبس مخاطباً الطبيب كما يُخاطبُ المتسوّل المارّة ، فرد عليه الطبيب (نعم ماهو-؟). فعاجله العجوز ذو الشعر الأشيب(يداهمني النسيان بشكل غريب ولا اعرف لماذا-؟!). رفع الطبيب رأسه ناحية وجه المراجع النحيل ، وطلب منه التوجه إلى طبيب آخر كتب اسمه على ورقة صغيرة ألقاها أمامه ببرود .

مـرّ الأسـبوع حـاملاً كـساعي البريـد رسـائل تنـذر بالمفاجآت والأخبار ، لم يصدّقْ وهو يطالع الطبيبَ يقرأ عليه علّته كما يقرأ الحاكم حكمَ الإعدام على المتهم (أنت مصاب بمرض خبيث ومؤكد لنا علمياً وفاتك بعد شهر ـ أو شهر وعدة أيام ـ الله يكون بعونك ـ تجبّر بالله).

لم يكن له ولد يحمله من باب العيادة يتكئ على ذراعه ، ولم يكن له صديق يواسيه في أعظم محنة تصيب الإنسان لم يجد في تلك اللحظة غير أن الطبيب انتصب واقفاً ، وتقدم نحوه مطبطباً على كتفه النحيل المتعب ، واضعاً في كفِّه بعض العبارات المواسية كما توضع النقود في كفِّ أي مستعطٍ رخيص حاول الوقوف والانتصاب على قدميه الراعشتين ، ناضل من أجل استجماع فتات شجاعته ووقاحة ونزقٍ قديم حاول ولكن عبثاً يحاول في مواجهة هذا الإعصار الذي عنوانه الحتف خرج من العيادة كما يخرج اللاعب الخاسر من صالة القمار ، متجهاً إلى منزله ، فلفتت انتباهه لافتة الطبيب الآخر ، الذي أبلغه أنه مصاب بـ(الزهايمر) وانه على وشك أن يفقد من ذاكرته نصفها أو ربعها ، وإذا كان ذا فألٍ سيِّء ، فإنه سيفقدها كلها يالهذه النكبات التي تتوالى على

الإنسان ، هذا المخلوق اللدُنُ الضعيف فقدان للذاكرة ومرض فتّاك ـ اي والله ـ فأل سيءّ) قال جملته هذه معزّياً نفسه التي باتت مهتاجة ومتحيّرة

الدكان المقفل شاهدٌ على انعدام العمل والإستمرار ، والمنزل الصامت شاهد آخر على انتظار عاصفة ترعد بالقدر. نسي كم لديه من نقود ، ونسي أسماء أهله وأقاربه ، نسي اسم المدينة التي يسكنها منذ ثمانين عاماً ، ونسي أين يقع الشارع الفلاني والسوق الفلاني والعطار الفلاني والحلاق الفلاني. نسي أسماء الألوان وأسماء الطيور والحيوانات ، نسي أسماء الخضروات وأسعارهن وطعمهن ، نسي أسماء الرؤساء الذين حكموه منذ سنين ، حين هتف بأسمائهم مراراً وصفق ولعلع خوفاً وطمعاً. نسي اسم زوجته ـ زوجته التي وضعت أمامه للتوّ طبق طعامه البسيط ، وخرجت تندب حظها وقدرها حزينة متألمة

نسي حتى اسمه ، هذا الصديق الوفي الذي التصق به طوال فترة عمره ، نسي تاريخه الطويل وذكرياته الماضية وألف حكاية وحادثة وقصة. نسي كل شيء إلا الموت ـ الموت الزاحفُ نحوه كأفعى سوداء كبيرة ، اقترب إليه ليبلعه غير آبه لكبره أو صغره ومكانته وعقله وجهله ،

فالبشر في عين الموت متساوون على طاولة الوليمة المقدسة يلفت انتباهه الشباك المفتوح ، وصورة الريح التي ترسمها الستارة الخفيفة المتحركة ، وضوء خافت للقمر يدخل بلا استئذان كأي عصفور يملؤه الفضول الجو يميل إلى البرد ، قشعريرته تثبت هذا شفتاه ترتعشان/يداه النحيلتان لا تقويان على إعانته في أن يرفع جثته التي تزن كيس طحين هناك شيء يخطف على عينيه من بعيد ، يقترب منه على مهل ، (من؟من هناك؟) يخاطبه بهلع وذهول ، الموت لا يتكلم ، إنه يسرق بحزم سَكّين رؤساء العصابات واللصوص والذئاب لا يتكلمون ، السيف الذي يذبح الشعراء والأزهار والربيع لا يتكلم اللون الأسود الذي تتشح به النسوة والفاتحة والتراب لا يتكلم ياله من منجل كبير يحصد الرؤوس ! ياله من سفر طويل تزدحم في محطّاته حقائبُ الأعمال الصغيرة والكبيرة!

ذاكرة فارغة نظيفة ورجل نحيل شاحب وحيد ، كلّ ما تبقى في تلك الغرفة القديمة الدَّبِقة صيفاً ، العسيمة شتاءً ثوان وينتهي آخر مشهد في مسرحية استمرت ثمانين عاماً ، ثوانٍ وينقضُّ الوحش على فريسته معربداً مستلذا بها وبدمها السائل الدافق.

حدّق بشغف وهو ينظر إلى الساعة وقد تعرف على

الوقت ، إنها الساعة (ـــ) لقد حان وقت موعده المتكرّر حين يخرج إلى المقهى ليلاقي صديقه(ـــ) فيلعبان الطاولي ، في شارع (ـــ) ، الجو بارد فنحن في شهر (ـــ) ، وعليه أن يلبس معطفه الذي أتى به من دولة (ـــ) في أخر سفرة له نادى على زوجته فلانة فلانة) دخلت عليه زوجته مدهوشة فاستعجلها هاتفاً ، (أحضري المعطف) ، تركت الغرفة وخرجت تصفق بيديها عجباً نهض على مهل وارتدى معطفه الذي أتت به الزوجة بعد برهة وخرج يضرب الأرض بقدمه ، ناسياً وراءه ضيفاً ثقيلاً ، كان من المتَّفق أن يغادر معه قبل دقائق معدودة

القصة منشورة في "ملحق أدب"

في جريدة الصباح سنة ٢٠١٢

هذا ما حدث في المقبرة

حين شتل صديقي المعتوه فكرةً كهذه ، وراح يسقي أرضها الخصبة ، لم يكنْ باستطاعتي أن أعانده ، أو حتى أن أرفض الفكرة ، والفضولُ القاتل الذي أطلَّ برأسه عبر نافذةِ القلق ، هو الآخر لعنتي حيث دفعني لكشفِ التفاصيل ، ورفع الخمار عن وجه المخفيات والمجاهيل. الغروب يبتلع ما تبقى من النهار المغادر بلا استئذان ، والشوارع تستعد لتوديع الخطى السائرة ، وأنا أنهيت آخر سيجارة في علبتي التي غادرتني هي الأخرى. انتبهت لجفاف شفتيّ الراجفتين ، وتلعثم لساني .وشهوة أعوام تمزق أحشائي ، وصديقي عاكفٌ على الاتصال بتلك التي وعدته بالمجيء ، متخفيةً بعباءة الليل البهيم. لا أعرف لماذا تخترقني أنظارُ المارة كسهام نارية ، ويداهمني شعورٌ بأنَّ الجميع يعلم سرَّنا ، ونيتنا المبيتة .تلك النية التي شارفنا على ذبحها ، وتفريق لحمها الآثم على وحوش جائعة

تضج في غاباتِ الرغبة

إنها الثامنة) همستُ في أذنه محذِّراً ، ولكنه بثَّ في صدري الاطمئنان ، واثقاً من مجيء فتاة الليل ، ثم سألني عن ترتيب مكان اللقاء ، هذه المهمة التي قمّصَني إياها ، ولكنني خفت أن اخبره بفشلي وتقاعسي.

لطم صديقي جبهته ثم جلس على دكّة الرصيف لاعناً الساعة التي تعرَّف فيها بي وتكلم متضايقاً: ماذا سوف نفعل ياأستاذ؟ ألم تعدْني بأنَّ المكان واقتناصه مهمتك ، وأنك رتَّبتَ كل شيء) لم أجبه ، بل صمتُ طويلاً واقترحت عليه فكرةَ الذهاب إلى منزلهم ، لطم جبهته مرة أخرى وقال: هل جننت؟ أي منزل!.

صمتَ قليلاً ثم انفجر مبشّراً: وجدتها. لا مكان لنا سوى مقبرة الانجليز القديمة.

الرعشةُ المتصاعدةُ من جوف صدري ، مع اتساع أحداقي ، جعلتني أقفُ رافضاً بشكل قاطع هذه الفكرة ، محذّراً صديقي المتصبّب عرقاً وحيرة واصفاً إياه بالمجنون ، وهل ضاقت السبل حتى نتورط في اكتشاف لذتنا الأولى بالقرب من رائحة الموت ، وحسيس الأموات. أجلسني إلى قربه وهو يبرر رفضه للفكرة أيضاً ، ولكنها البديل حيث اللامفر منه ، تحسست جيبي لاشعورياً باحثاً عن

سيجارة أخرى ، فتذكرت نفاد العلبة طلبت منه سيجارة فأعطاني واحدة أشعلها لي ، والتقط فمُهُ أخرى نظرنا كل واحد للآخر بنظرة يملؤها اليأس والحزن ، رأيت في عينيه ضياعي وحرماني ، وهو الأخر طالعني كقارئ الحظ التعيس ، إبتسمَ /ابتسمتُ /رمى سيجارته /رميتُ / ونهضنا مسرعين.

* *

المقبرةُ القديمة هي آخر ما تبقى من الانجليز (القوات التي دخلتْ لتحرير /احتلال / مدينتنا). البقعة المهجورة ، يملؤها جيش كثيف من القصب الشائخ ، وسياج يوحي بقِدَمِ المكان. كم استفزت المقبرةُ قلوبنَا الطفولية في عهد مضى؟ ، فلم نجرؤ على دخولها ، بل لم نجرؤ على سماع قصص عنها ، وكيف تلبّستْ أرواح الموتى في الكثيرين ممن شاع عنهم المسّ ، بل نقل لنا رجال ونساء ابتلعهم الدهر ، إن تلك المقبرة فيها حارس يحرسها ، ولعنة قد تصيب كل من ينوي دخولها ، لتخويفنا ونهرنا عن الذهاب إليها سراً (كل هذه الأقاويل روَّجها "شقي المنطقة" كي لا يفسد أحد عليه خلوته فيها ، حيث كان هو وزمرته يرتادون المقبرة ليلاً لقضاء ملذّاتهم الممقوتة) ، وها أنا ذا أدخلها مع معتوه وفتاة غريبة (حورية ـ هذا

اسمها) دفعتها الحاجةُ لمرافقتنا كلينا حتى الموت ، من أجل ورقةٍ نقدية لعلَّها يائسة من الحياة فلم تكترث حتى لمكان الرذيلة ، كحالتنا وعِصابة الشهوة التي عصبناها على أعيننا. أنا وصديقي التَّائه مثلي كنّا نختلف حول ابسطِ الأشياء ، بتفاهتها ورخصها. ولكننا هذه المرة اتفقنا على ذبح حورية غير آبهين.

لسانُ الشارع لَحَسَ المارّةَ ، ووقتنا الراكض كالغزال نحو غابة الليل ، لم يمهلنا فرصة لترتيب أفكارنا ، أوقفت صديقي وهمستُ في أذنه: هل أنت واثق من مكاننا هذا؟) غمز بطرف خدِّه الملتصق بوجهي وردَّ قائلاً: لا) تسمّرتُ في مكاني وعاجلتني رغبةُ الرجوع ، ولكنها وأدت في حفرة اللذة العميقة ، ولم افهمْ سرَ التواصلِ برغم المخاوف والمصير المجهول. ذهابنا ورجوعنا عدَّة مرات في شارع أو شارعين ، أتعب ساقيّ النحيلتين ، والفتاةُ راغبةٌ في إنهاء هذا الفلم التّعيس. ألان حانت الفرصة لدخول المقبرة فلا يوجد غير شبَحَيْ رجلين أعطيا لنا ظهريهما متجهيْن عكس الطريق) نطق صديقي محذّراً وهو يهمُّ ماسكاً ذراعَ الفتاة بقوة ، قاصداً باب المقبرة المفتوح على النصف ، فدخلت خلفهما تابعاً ومغطياً الطريق بلحاف الحذر. رفعت بصري للأعلى ، طالعت ما

هو مكتوب على باب المقبرة ، إنها لغة غير لغتنا ، لم أفهم شيئا منها ، رائحة القصب والطين ، تسيطران على المكان ، أجول بفكري سارحاً في المكان الموحش ، خائفاً حتى من ظلِّي ، الليلة مع سوء حظنا ،كانت مقمرة حدَّ الفضيحة الكاملة ، وصديقي الذي افترش مكاناً يبعد عن عيني عدة أمتار ، راح يمارس هوايته من تقبيل وملامسة ، وأنا متسمِّر في مكاني أرتعش كهاتف نقّال ، مستجمعاً ما لديَّ من قوة وتركيز ، لمواجهة ما سوف أواجه ، تأخذني رجلاي على مهل ناحية قبر قديم نُقشتْ عليه لغةٌ لم أفهمها ، راودني إحساسٌ بأنها عبارةُ (هنا يرقد بسلام الفقيد) وقبر آخر مكتوب على لوحته (هنا يرقد بسلام فلان) وآخر ـ وآخر ـ وصديقي المجنون وفتاتنا المستسلمة ، يصدران عنفاً وشبقاً وعدم اكتراث للمشهد

حاولت أن استجمع قوةَ النظر ، لمعرفة الوقت من خلال ساعتي ، ولكني لم أفلح أنفاسي قريبة مني ، وصوت خفقان قلبي يفضح إرتباكي ، أنتظر دوري في إطفاء حريق لذّتي ، والتحدَّث والإفتخار به يوماً أمام من يتهم رجولتي القمرُ المتلصص يزفر تأوُّهاً ، القصبُ الشائخ يعجز تقريباً عن ستر عورة شابين وأنثى غريبة المنظر والحال

هناك حين انتهى صديقي جاء مترنحاً/ فاسحاً لي الوقت ، لأستجمع ما تكسّرَ من زجاج أفكاري ، فتوجهت نحو الفتاة النائمة بلا حراك ، ودنوت منها طالباً منها العون (فهذه أول مرة سأكتشف فيها جزيرة) ، مسكتُ يدها ؛ ففاجأتني ببرودة وإحتقار ، لم أفهم في البداية ، ولكني حين قبّلت خدها ، ونزلت متلذذاً إلى الأسفل ، حيث العنق البلوري المخفي ، تفاجأت من جديد برائحة سبق وأن شممت مثلها ، رائحة يحملها كل واحد منا ، بالطبع لم أغفل عنها ـ ـ أنها رائحة الدم

* *

حالة الذعر وجنون الموقف الصادم قلبي كقطار سريع ، جعلني انهض مفزوعاً وصورة صديقي تراود ذهني ، ماذا فعلت بها) صرخت فنهرني صديقي عن الصراخ ، واضعاً كفَّه المتربَ على فمي لم أفعل شيئاً اصمتْ أيها الأحمق وإلاّ فضحتنا ماذا دهاك) كلمات أطلقها صديقي وأنا أشير لمكان الفتاة السابحة بالدم ، هرول نحوها ثم تسمَّرَ لثوانٍ ، واضعاً يديه على رأسه ، ثمَّ هبط بكل ما يملك من قوة على صدرها مفتشاً عن أملٍ في النجاة فلم يعثر عليه هناك

لم افعلْ شيئاً لم افعلْ شيئاً) ردَّد صديقي خائفاً

ومذهولاً ، جلس بجوار أحد القبور القديمة وهو ينحب على حاله بل حالنا وكيف سنخرج من هذه المعضلة؟ ، وعبر أيِّ طريق ياترى؟ ، فكّرت قليلا واستدرتُ نحوه ، ورأسي مليء بالأفكار والمطبّات والخوف الكامن ، هل ياترى لعنةٌ هذه ؟ أم أنها الأرواح؟ هل صديقي كاذب في ما يدَّعي؟ أم بالفعل إنه يومنا الأخير في عالم الطمأنينة ، قفزتْ في رأسي فكرة دفن الفتاة ؛ ونحن في المقبرة ، فهي فتاة غريبة لن يسأل عنها احد ، وليس بحوزتنا غير هذه الفكرة الوحيدة للخلاص والحياة ، فتوجَّهتُ نحوه طالباً منه الإستماع لمخططي الجديد ، همستُ له /كلَّمته /ناديتُه باسمه فلان فلان /لم يجب! دفعني الفضول نحوه ، هززت كتفه ؛ فوقع جثة هامدة لا حراك فيها ، وقد تدفَّق من عنقه الدم كالنافورة رجعت للوراء ثم وقعت على مؤخرتي ، صارخاً بكل قوتي ، ماذا يجري هنا ، رباه ساعدْني ، إنها اللعنة ، لعنة الأموات ، أم روحٌ تدور تقتلنا في كل حين من دون أن نشعر ، كيف أنجو؟كيف أنجو؟) أتحدث مع نفسي باكياً كالطفل المرعوب ، هناك وأنا جاث على ركبتيَّ ، لمحتُ شبحاً يدقُّ الأرض برجله من بعيد /متَّشحاً بالسواد /ملثماً /لم أرَ غير عينيه المليئتين بالوميض ، حاملاً بكفه اليمنى خنجراً

طويلا معقوف النهاية ، وفي اليد الأخرى سلسلة تلمع مع ضوء القمر الصارخ ، قذف الإرهابَ في بدني دفعةً واحدة ، خاطبته متوسلا:

- اتركْني أرجوك) لم يجبني سوى أنه هزَّ رأسه رافضاً ، ومشيراً إلى عنقي ، لم أتحرك أبدا ، خوفي أجبرني على الركوع وتسليمه رقبتي بهدوء ، آخر شيء طالعته قبل أن أغمض عينيَّ ، طرف خنجره المصقول ، يقترب نحو رقبتي ، والقمر الملتصق بجبهة السماء ، يعدُّ مع النجوم مجلساً للعزاء

جلس مرعوباً على صوت نغمة عالية لرسالة أتته من الهاتف النَّقال ، اعتدل في جلسته/دلك عينيه الناعستين /قرأها:

جهزْ نفسك الليلة ، اتفقت مع الفتاة

نشرت في الف ياء الزمان سنة ٢٠١٠

أوراق متناثرة

دخلت من باب المدرسة امرأة تجرُّ طفلاً تنوي تسجيله في الصف الأول ، فاتجهت ناحية مدير المدرسة الذي أطلق العنان لخيول نظره اللاهثة صوب نهر حسنها ، متسائلاً بينه وبين نفسه "هل من المعقول ستكون هي"ـ؟!

وبالفعل اكتشف أنها حبيبته التي أرهقت أيامه ، ومزقت أوراق عمره ، وها هو يعيش اللاحياة ملتصقاً بحائط العمر الذي أوقفه على عتبة المسؤوليات والحيرة الطويلة. إنها حبيبته التي تمنّاها زوجة منذ زمن طويل حين كان شاعراً واعتزل الشعر لسبب كانت هي طرفاً فيه. كيف حدث ذلكـ؟ إنه السؤال الذي بدأ يسأله لنفسه وهو يطالعها تقترب/تسلم/ تستفسر منه عن طلبها الحالي ، تحكي وهو سارح فيها ناقم عليها تارة ، ومشتاق تارة أخرى لضمها ضمة طوييييلة تتساقط فيها أحزانُ عمره كأوراق الخريف.

أهو القدر .؟ أم هو حظه الذي رماه بلا سؤال في بحر الضياع؟ أهي النظرة التي أوقعت به في شرك الحب اللزج من دون رحمة؟ ، أم الصدفة المخترقة لحم عمره كرصاصة طائشة؟.

إنها المرة الأولى التي تحط فيها طائرة الأحلام في مطار قلبه المهجور ، حينها لم يسعه العالم ولم يكتف بنثر أزهار الأماني هنا وهناك ، المرة الأولى التي يعشق فيها حين انفجر ينبوعاً للحب في يباب عمره كغيره من الشباب المنكفئين على دراستهم ، تجاذبه رغبةُ الوصول إلى قلبها ، تلك الفتاة التي مابرح يكتب اسمها في كل مكان يجالسه ، اسمها ملأ أوراق كتبه/رحلته/الحائط الملتصق بسريره،هي التي دفعته لمغازلة الشعر حينها ،فصدع لأمر الخيالات حاملاً قربة مشاعره مالئاً فيها عذب الكلمات والعواطف الشعر صديقه الأول حينها ، أقنعه بالمخاطرة وتحرير أسراب الحمام العاطفي في سماء الورق.

كتاباته البريئة مسحت مخاضها ، حينها أخذ على عاتقه جمع هذه القصائد في دفتر رتبه بأناقة ، القصائد اجتمعت مُردِّدة نشيد الحب والجمال ، كان جمع القصائد شيئاً صعباً عليه ، لدرجة أنه بدأ يخاف على ديوانه الصغير من كل شيء حوله ، واضعاً إياه تحت

مخدّته تارة وتارة أخرى ، يدسّه خائفاً بين كتبه المدرسية متستِّراً على سره الثمين. وفتاته البعيدة لا تعلم شيئا عنه ، يغني *ايبكي ايكتب ايردِّد ايهلوس* باسمها ليلاً وهي جالسة كحورية على باب جنتها الصعبة المنال. برغم فقرها وحاجتها للمادة ، بقيت تلك الفتاة صلبة وعنيدة. والدها الذي غادر وشيكاً هذه الدنيا ، تاركاً أمّاً وطفلةً ، فتح الباب بعد رحيله للعوز والضياع ، والحاجة الملحّة دفعت الأم وطفلتها إلى العيش على بيع حب عباد الشمس الأسود. حيث يجتمع أولاد وبنات المنطقة يشترون أكياس الحب ، فرحين بهذه البذرات المطبوخة على الزيت ، والملفوفة بأكياس ورقية بشكل مخروطي .

الشاعر الشابُّ يدخل الشارع الموصِّل لبيتها ، يتلصَّصُ يميناً وشمالاً ، خوف أن يراه أحدهم ، يطالع بشغفٍ طفوليٍّ بابها المتهرئ ، باكياً من أعماقه على حبيبته التي تختفي خلف ذالك الباب. لم يستطع احتمال الموقف كثيراً ، فقرَّر الذهاب ، لولا وصول قافلة من الأطفال إلى باب حبيبته ، لشراء بعض أكياس حب عباد الشمس ، فأوقفه المشهد برهةً ، وبدأ يستجمع في داخله آخر نقطة من شجاعته ، ليرى فتاته علَّها تردُّ على طلبات المشترين. تخرج في تلك اللحظة حوريته الساحرة ، فاسحةً المجال

لتنويعةٍ موسيقية يخالطها صوتٌ ملائكيٌّ رقيق تخرج عليهم وهي ماسكة بيدها أكياساً من الحب ، تفرقها على الأطفال المتنافسين فرحاً في الوصول إلى أول كيس ، وحبيبها المختفي خلف ستار خجله ، غارق إلى رأسه في لوحة رسمتها يدُ الربِّ بلا فرشاة

إنها حبيبتي) يتمتم بينه وبين نفسه ملهوفاً عليها /على وجهها/تقبيل يديها/حضنها إلى الأبد إنها حبيبتي ولكن كيف أصل لها؟) سؤال يجول في فضاء مخيلته المرهقة

في اليوم الثاني أقبل مسرعاً حاملاً ديوانه الصغير ، مُعطَّراً بأحاسيسه /مشاعره/لوحاته التي رافقه الليل في رسم أغلبها/ عاد في اليوم الثاني ليعلن أنها ملكه ، ولن يفرِّطَ في شيء يملكه إقتحم الشاعر الجريح شارع حبيبته المختفية خلف جدار هرم ، وراح يسير على مهل منتظراً فرصةً للفتها لمشاعره وجنونه إلى أن أتت اللحظة الحاسمة وأقبل صبيٌّ يحمل نقوده باتجاه الباب دقَّ الصبيُّ الباب ، فأشرقت فتاته المعنية بالمشاعر والأحاسيس في قلب شاعرها النازف على صليب عشقها ، لما انتهى الصبيُّ أرادت إغلاق بابها ، تفاجأت بشبح يقف على بابها ، حاملاً كتاباً صغيراً ، سألها الشاعر على مهل (هل

تبيعين حب عباد الشمس؟(أجابته ببرود: نعم!) فاشترى منها كيساً وناولها بهدوء ديوانه الثمين كحياته ، متمتماً: هذا لك ـ منّي لك) ناولها الكتاب واختفى من دون أن يلتفت ، تاركاً الفتاة على بابها حائرة ترنو إلى الكتاب ، وهي تستنشق أوراقه التي فاح منها عطر عَبِقٌ.

* *

كان واثقاً أنها ستكون في انتظاره ، وخصوصاً أنه كتب لها رسالة دسّها في وسط ديوانه يحكي لها عنه وعن مشاعره إتجاهها ، ومن ضمن ما جاء في رسالته وقت مجيئه الثاني ، كي تستقبله ، فتخيّلها وهي تمشّط شعرها /ترتب وجهها /يفوح عطرُها كوردة من الجنّة لم يضع في باله فكرة رفضها له ، ولم يقتنع أبداً أنها سوف تتجاهله ، لسبب زرعه في ارض تصميمه ، ألا وهو (من المستحيل أن تقرأ معشوقتي كلماتي البريئة الصادقة ولا تعشقني وتعشقها).

صادف في طريقه طفلاً يبكي على حَبٍّ عباد الشمس المنثور على الأرض ، فعاجله الشاعر الشابُّ كي يساعده على جمعه ، فأوقفه شعور غريب ، حين لفت انتباهه الكيسُ ، فأوقف الشاعرُ الطفلَ ، وأخذ الكيس منه بالقوة ، ظلّ الطفل الصغير في حيرة حابساً غمامة

دموعـه ، والـشاعر منـهمكٌ في التَّحـديق بتلـك الورقـة الملفوفة بشكل تعيس ، إنها ورقة تحتضر يائسة ، خُطّتْ عليها إحدى مقاطع قصيدة له ، لا اصدِّق ـ لا اصدِّق) ردَّد كالملدوغ وهو يسير متجهاً ناحية الباب ، أقبلت فتاتان صغيرتان وصبيٌّ أخر ، يحملون كلُّهم أكياساً مشابهة ، فتّشَهم جميعاً ، فوجد قصائده الثمينة قد تبعثرت هنا وهناك بين أيادي الأطفال ، ومنها نامت باكية في أحضان المزابل. إنه ديوانه /شعره /أحاسيسه /لياليه /هديته الكبرى التي أهداها لفتاته /محبوبته /حلمه الأوحد فرّطتْ به وتركتْ شاعراً يطحنُ مأساته باكياً ويائساً من الوجود أجمع.

هرول الشاعر مفزوعاً من دون أن يدير وجهه للباب ولها ، فمن المؤكد إنها أهملت حتى رسالته ، أو إنها تمزقت في إحدى المجاري الآسنة. أكان حلماً أم كابوساً بهيماً هذا الذي رماه به دهره التَّعيس ، ديوان شعره أغلى ما يملك أهداه لملاكه التي تجاهلته ، واستخدمته في لفِّ الحب اللعين ، هل أنا رخيصٌ لهذه الدرجة) سؤاله الذي حيَّره وجعله يبات سهرانا ليلتها إلى الصباح ، لم يذق إلا طعم الخيبة ، ولم يشرب إلا شراب البؤس والأحزان.

* *

انتبه مدير المدرسة حين دقَّ صوتها في أذنه كناقوس (أستاذ أستاذ) ، نظر إليها طويلاً/ حزيناً/ غاضباً/ مكسوراً/ وهي مستغربةٌ الموقف والنظرات الطويلة ، حين داهمت قلبه (المدير) رغبة البكاء والعتاب ، رغبة الشكوى في أحضانها ، ولكنه الواقع المرير ، الذي فرض عليه أن يكون هنا على مقعده الرسمي ، وهي على أريكة المدرسة المتواضعة ، كأي مراجعة عاديّة ناولها استمارةً للتسجيل ، وطلب منها أن تقرأ الاستمارة وتملأها الآن أو فيما بعد فضحكت ، وهزّتْ رأسها رافضةً

تسمَّرَ المدير في مكانه ، ناظراً إليها في غضب ، ها هي حبيبته تضحك مرةً أخرى ، عاجلها بحزم قائلاً: مابكِ) فردَّت عليه خجلى: لا أستطيع! (لا تستطيعين!ـ لماذا؟) فأجابته مبتسمة لأني يا أستاذ لا أعرف القراءة والكتابة

وقف المدير ببطء محدِّقاً في عينيها ، عيناه الغائرتان نثّتا على مهلٍ رذاذَ دمع حارٍّ/ خدرٌ إكتسح مساحة عقله الغائم/الأحداث الماضية تلاطمت في جوفه كبحر هائج/ ألحّتْ على روحه رغبة مغادرة الغرفة ، وغادرها فعلاً حيث إتَّجه صوب باب المدرسة تاركاً خلفه هدير أصوات الطلاب في الصفوف كأنَّه شلالٌ هادرٌ ، واختفى متّجهاً إلى مكان لم يحدِّدْ هويته ، ترعد في سماء خياله جملتها الأخيرة .

الساهر

لا نعرف كيف نحذو خطى التباعد المرهق بالانتظار ،في لحظة تسرق من مكنوناتنا الرغبة بالوصول إلى شيء بعيد ، هذه الرغبة المتلاشية تحت يد الفجر ترهق ذاك الساهر فوق الأوراق،ما أتعسها من أوراق محفوفة بالصمت ، وقلم أعمى لا يرى إلا ظهر الأفول الساري مازالت تدور في أذنه صرخات الليل المتواري خلف الأوهام ، وتأوهات سريرٍ كالقارب يسافر في بحر جاثم رغبته قابعة كأفعى في جحر اليأس ، ولسانه يتمتم /يلتصق بشفته العليا/ يتأرجح بين الصمت والفراغ تصارعه الذكرى مهزوماً كما يشتهيه الوقت المتآكل حزيناً كغيوم تشرين التي تناست البكاء على كتف مدينته العطشى. إنه الكاتب الذي غادرت مقلتيه الدموع ، وَودّعت أوراقه الكلمات /الخيالات/ العواطف يضجّ قلبه متجاهلاً

زحمـة الأفكـار المرتميـة في أحـضان الرتابة ،فيـستفزه الوجـع الأزليُّ ، مستنفراً قواه/ مكنوناته/ أحاسيسه العذراء التي تتمرَّد على نقائها ، فيسأل نفسهـ هل ياترى جفّ معين مخـيلتي؟؟وهاأنـا ذا اشـحذ كلمـاتي) تغمـره رغبـة في البكـاء ، فتـسبقه الـسماء لتبكـي مطـراً تلاقفتـه شـفاه الأشجار اليابسة يمزقُ أوراقه النحيلة ويتَّجه نحو النافذة تاركاً قلمـه الكسول ، يئنّ على خيبته المنتظرة ،هناك حيث البساتين البعيدة مطرـ مطرـ مطرـ الطبيعة سكرى بأنغامهـا ، والـسواقي نـشوى تـرقص كعـروس ثلاثينيـة صـابرة هنـاك قفـزت فكـرةٌ إلى رأسـه (هل لي أن اكتـبَ شيئاً عن المطرـ؟هل تُبعَثُ روح السياب من جديد لتنطق على شفتي اليابسةـ؟. من جديد/ مطر/ مطر/مطرـ هل يـا تُـرى يـذكر النـاس المطـرـ؟. عـاد كـالمجنون إلى أوراقـه القابعة ،ناسياً لوعة مخبوءة تحت لحاف الضجر ،راكلاً اليـأس بقـدم الـتَّمني ،إلى أوراقـه رجـع ليكتـب مـن جديدـفتذكر ماذا كتب السياب عن المطرـ؟:

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر

اوشرفـتـانـ

ولكنـ؟!

إن بساتين اليوم غادرت مضاجعها ، فقد أخبرتني آخرُ

نخلة هاجرت إلى الجنة أن النخيل لن يعود مادام في العراق خوف/وحزن /وثكلى تنوح تحيّرَ الساهر في غابة أفكاره ، لاجئاً إلى لفافة تبغ أخيرة في علبة سكائره البسيطة ، مُسدلاً أجفانه في حيرة ونحول .ثم استجمع قواه كي لا تفوته فرصة الكتابة عن المطر.

سأرجع إلى السياب) تمتم في حزم يهبُّ على قلبه ، نسيمُ الثبات ورغبة المواصلة ، ونشوة العطاء مستذكراً في لهفة غريبة:

ونشوةٌ وحشيةٌ تعانقُ السماء

كنشوةِ الطفلِ إذا خافَ من القمر

ولكن؟! في وقتنا الحاضر لدى الناس نشوة وحشية لا تعشق الحياة والطفل ما عاد يخاف من القمر ، بل يخاف صوت أمه التي ودّعتْ أباه يوم تلقَّفه الموت في ساحة المفخخات أيّ قمر؟أيّ نشوة؟(ترهقُهُ الأفكار المتخمة بالتساؤلات كوابيسه/أحاسيسه/غورُه اللاّشعوري العميق) يتمتم:

لا عليّ - سأكمل قصيدتي:

كأن طفلا بات يهذي قبل أن ينام

بأن أمه التي أفاق منذ عام

فلم يجدها؟ثم لج بالسؤال

قالوا له بعد غد تعود

توقف الساهر عن التأمل ثم استفاق على صفعة صوت الطفل الذي أضاع أمه ، ما أشبه طفل السياب اليتيم بالعراق ، والخداع /والتضليل /والتراقص بالمواويل الفارغة في زمن الضياع ما مرَّ عام والعراق ليس فيه جوع ليس فيه موت /نفاق /وعربدة للسائرين في أزقَّة الخراب!! تلاشت أحلامه برسم لوحة كلوحة سياب المطر ، فتراجع خطوة إلى الوراء متأملاً أوراقه/ عراقه/ ترابه المسلوب تحت جفن الظلام تسأله طفلةٌ تفترش أحلامه ، بعينين يملأ بؤبؤيهما الفضول مستنفراً فُتات أحاسيسه الهاربة تحت جنح الدياجير ،فلا يرجع إليه سوى حصان أعمى ـ وسيف مغمىً عليه في زحمة التَّنهّدات الفجر كفكفَ ادمعَ السماء ، والظلام حزم آخر حقيبة له ، والساهرُ قابع بين الحيرة وإنثيال النعاس هل يا ترى عجزت يده عن رسم لوحة كانت أقرب إليه منه؟ ، والخيالات ركلته كقارورة عطر فارغة؟ ، هل يفنى في منفاه الجديد؟ويسافر قسرا إلى مجرَّة التناسي؟ هل؟هل؟ هل؟يااااااه ـما أقساها من تساؤلات ، والوطن يئن في طرقات الضياع ، يبكي على رغيف دافئ ، يهديه له كفٌّ حنون ، ويرتجل قصائدَ تتآمرُ

على قتلها الكلماتُ هطلت أمطارُ أحداقه يرشفها خدٌّ شاحب ، ثم استدار ليقع فريسة للنعاس ، فلم يجد ادفأ من أوراقه المتلهفة للعناق غطَّ في نومه كالمشتاق ، تراءت له صور وذكريات ، ترانيم /كلمات/ شعور ناعس كالفجر تراءى له صدفة في غياهب أللاّشعور ، السياب يحمل معه المطر وحبيبته التي ما مات في عينيها النخيل والسّحر ، قال له الساهر: أين أنت ياسيّاب العراق؟أين المطر؟ وأين الحبُّ والربيع والشجر أسعفه السياب يغمره حزنه المتأرجح في أغصان قصائده: نم أيها الساهر فسماء العراق جفَّ ثديها ،ونخيل البساتين غادر صدر حبيبته القديمة ، نم أيها الساهر لعلّني في يوم جديد آتي إلى العراق من منفاي البعيد ،حاملاً بين جوانحي قصائدي والمطر ، علّني أعود فلا يرجع الصدى كأنه النشيج "علّني ــ علّني"

نشرت في الف ياء الزمان سنة ٢٠١٠

قتلت عصفورا مرتين

حثيثةٌ هي الأيام حينَ تمرُّ على قلبٍ متمرِّدٍ ، يرسمُ في الأفقِ شعوذةَ الأماني ، ويرّشفُ من أحداقه عصارةَ التّنهدات ، تدورُ في أفلاك رأسه الخيالات/المطبات العاطفية /الاستشعار الجنونيُّ الذي أرهقهُ طوالَ فترةِ المسير في مسالك الذات ،وحيداً كأنهُ على هذا الكوكب المليء بالتناهيد المشفَّرة على أبواب الحكايات ينظرُ في ساعته مستدركاً الوقت الزاحف كالأفعى على رمال الأيام ، يطلقُ بَصَرَهُ في الفضاء ، فيرْجعُ لاهثاً إليه كطير مبلَّل خائف،لا يلفتُ انتباهَهُ غيرُ نُخيلات عَطشى في البساتين البعيدة ، وطريقٌ طُبعتْ أوصالهُ التَعبةِ في لوح ذاكرته المرهقة يَحْرقُ لفافةَ تبغٍ يَسْتعينُ بها على وحشة الطريق قاطعاً بها حبلَ الوحدة المتدلّي حولَ رقبته السمراء ، وسماءُ المكان مثقلةٌ بغيومٍ خجلى ، تتوعَّدُ

بالنَّشيج في أية لحظة سانحة يَستدرجُ الطريقُ سيارتهُ المتخمة بالركاب إلى مطافها الأخير، فينتهزُ فرصةً لترتيب أغراضه الشخصية، مستنفراً ما لهُ منْ قوة لمواصلة مسيرة أرهقها التكرار. تتوقف سيارة المعلمينَ المألوفة لدى تلاميذ القرية، فيغادرُها وشيكاً زملاؤه، فيظلُّ آخر المترجِّلين، إذ تداهمه لحظةُ تأمل للغيوم الحزينة، فيصدق الوعد حين تسقطُ أولُ دمعة من عين غيمة عالية، فوقَ خدِّه يطالعها وهو في طريقه إلى باب المدرسة، وبخطوات وئيدة، تنفرجُ السّتارةُ عن وجه تلاميذه الواقفين في إصطفافهم المعهود، فينتابه تمردٌ عنيف، على روتينية المشهد المألوف تحرَّكتْ في داخله لذةُ الصراخ/البكاء /الرحيل ـ يتَّجه مستسلماً نحو تلاميذه البائسين أثوابهم الكئيبة /وجوههم الذابلة /أحداقهم الكثيفة بالتساؤلات، فيبادر الى الكلامَ أكبرُهم سناً، وكصفته المعهودة بمراقبة التلاميذ مخاطباً الأستاذ.

-كيفَ حالك أستاذ؟

فيجيبُه الأستاذُ في لهجة بسيطة الترحيب وبلا مبالاة

- على مايرام!

يأمرُ الأستاذُ تلاميذه بالوقوف صفّاً والمسير إلى قاعة

الدرس المتعبة ، مبتدئاً أولَ درسٍ له في ذاك اليوم الغائم طالباً من أحدِ تلامذته القريبين بمسحِ السبورة المليئة ببقايا طباشير درس الأمس ، من ثم يأمرهم بإخراج كتبهم ، فيصدعُ الجميعُ بلا تردُّدٍ لإخراجها من حقائبهم الرَّثّة فيتَّجه صوبَ الشبابيك ناظراً بعينينِ آلمتهما الكتابةُ في ليلته البارحة ، وإذا المطر مالبثَ أن باشرَ عزفَ مقطوعته السحرية في صباحٍ مفعمٍ بالغموض. وفي حلكة تأملا تهنبسَ صوتٌ خافتٌ من ورائه متمتماً :.

-أستاذ

ولكنه لم يعر أهميةً لذلك الصوتِ ذي الأعوام الستة ، فكرّر التلميذُ المحاولة مترددا ً:.

أستاذ أستاذ أنا ما

فالتفتَ إليه الأستاذُ في غضبٍ ، أفسدَ عليه لحظةَ تأملٍ قائلاً:

-ماذا تريد؟

-لقد نسيت كتابي

- ماذا؟

-نسيتُ كتا

أقتربَ منه الأستاذُ في حنقٍ مهول ، ليس من عادة ذاك/ الأستاذ/ الكاتب/ الحنون أن يعاقبَ أو أن يظلمَ أو

يجرحَ أصغرَ مخلوقٍ على وجهِ الأرض ، تغيَّرتْ رؤاهُ فانتفضَ يصارعُ هذياناً كالبحرِ في رأسهِ الناعس ، وتكلُّسات الإنتقام ذابت في مجرى دمه ، ووجهُ التلميذ يفصحُ عن شهيةٍ للصفع والتحقير ، ثم بحركةٍ لا يفهمُها الأستاذُ صفعَ وجهَ التلميذ وهمَّ بضربه ولعنه ، والتلميذُ ليسَ له منفذٌ إلا البكاءَ بينَ أكفٍ تهوي عليه كالمطر .يبكي التلميذُ /يحلفُ/يتوسلُ ، والأستاذ لا يفهمُ سرَّ تواصلهِ في الضربِ والتحقير. إعصار الموقف باغت الحضور ، فبكى بعض التلاميذ خشية أن تنزلَ على رؤوسهم لعنةٌ مشابهة. يتوقّف الأستاذ عن ضرب التلميذ ، طارداً إياهُ خارجَ الصف .خرجُ التلميذُ هارباً فرحاً بالخلاص ، ثم هدأت زوبعة الانتقام في عقل أستاذه ، الذي ظلَّ صامتاً برهةً بعد تهديد ووعيد لمن يفعلَ فعْلَ ضحيتهِ اللاهثة في المطر. ماذا فعلتُـ؟) يسألُ روحَه في حيرةٍ وذهول ، لم يفهمْ في تلك اللحظة سبباً واحداً لشرّهِ المتطفّل ، وانفعاله المستترِ خلفَ ستار اللاّشعور ، لم يفسرْ ما آلتْ أليه لحظاتُ الانفعال ، واكتفى بالنظر إلى التلميذ من شباك الصف ، من بعيد في ساحة المدرسة ، حيث يجول مشرداً وحيداً خائفاً ، يبكي على حظه المنحوس. أضطرب الأستاذ في مكانه

وارتجفت يداهُ النحيلتان ،وفي داخله رغبةٌ عنيفة إسمها الندم تمتمت شفتاه في خجل من ذاته الضائعة مستغفراً ربَّهُ ، ثم خرج كالمجنون نحو الساحة الموحلة بمياه الإمطار ، يبحث عن تلميذه المفقودرَمَقهُ التلميذُ من بعيد ، وظنَّ أن الأستاذ جاء ليكملَ نصابَ العقوبة ، فعاجله الأستاذ مكفِّراً عن خطيئته الكبرى "تعال ـتعال"

هرولَ التلميذ نحو الشارع المؤدي للمدرسة خائفاً/ مرعوباً/ بلا وجهةٍ محدَّده ، سوى الهروب من فكِّ الأستاذ أللاّهثِ وراءه في ذُعْرٍ وصراخ " تعال ـتعال"

بلا جدوى فالهاربُ ماضٍ في طريقِ الخلود ،تعترضُهُ سيارةٌ ، تحمله إلى عالم لاهوتيٍّ بعيد ، تاركاً خلفه الناسوت ، غارقين في عالم متخمٍ بالأوهام "تعاااااااال" يصرخ الأستاذ والدموعُ تفرُّ من عينيه الضائعتين عند تخوم الذُّهول،يجثو على ركبتيه المتعبتين/يبكي /يضجُ بالصراخ / يلوم روحَهُ المسكوبةَ حرقةً وحزناً .

السحابة

يالهذه الأرض المصابة بالحمّى ، الساعة الآن الثامنة ، والنجمات تجمّعنَ حول القمر كجوار ، ومازال حرُّ الظهيرة في المدينة الجنوبية يجلد ظهرَ المساء ، ما دفع اللائذين من الحر إلى التجمّهر على شاطئ النهر. يسبحون أو يجلسون على الجرف منتظرين نسمة هواء عذبة ، أو أغنية يطلقها أحدهم كحمامة في سماء آذانهم. المنظر مألوف للجميع ، تكراره اليومي جعله كلوحة معلّقة على جدار المدينة . النهر الزاحف كجندي جريح ، لم يسلمْ من تحرّشات الجالسين ، وخصوصاً راجميه ببطحات العرق ، و(قناني) البيرة المستوردة ، وتلك المجاري السوداء التي تلفظ أنفاسها الكريهة على وجهه ولم يسمع أحدهم شكواه وأنينه ولم يلتفت أحدهم إلى مرضه المزمن. هاهم الرفاق تجمّعوا دوائر ـ دوائر ، دائرةً

سكرى تغني /دائرة تتشاجر/دائرة تتناقش بأمور السياسة /دائرة تفعل أشياء مريبة في الظلمة والنهر يرى ولا يتكلَّم/لا يعربد/لا يعترض.

دلك احد السكارى عينيه ، ثم حدَّق في الفضاء ، ثم رجع ليدلك عينه أقوى من السابق ، ثم حدَّق من جديد ، فنبس إلى رفاقه الذين تمايلت خصورهم ، واهتزَّت أردافهم طرباً لأغنية رخيصة يغنيها احدهم: انظروا.. انظروا ما هذه؟! نظر أحدهم فلم يرَ شيئا ، ثم ضحك ورفع كأسه مهنِّئا صاحبه: على الخير.. سكرتَ واتبعها بضحكة عالية .ولكن صاحبنا ليس سكراناً ، وتأكَّد أكثر حين غسل وجهه بالماء ، وعاد ليصرخ بهم من جديد: انظروا.. انظروا.. التفت الجميع إلى ناحية البساتين البعيدة /إلى الظلام الذي التحفته ، تفاجئوا حين لاحظوا نقطة ضوء ثلجيٍّ يقترب إليهم من جهة البساتين ، ولكن لم يعرفِ الجميع مصدر هذا الضوء العالي ، وخصوصاً انه مرتفع على النخيل العالي بعدة أمتار. ضحك احدهم وقال: انه ضوء الجسر البعيد. لطمه آخر على مؤخرة رأسه وقال له: وهل الجسر من هذه الجهة يا غبي. انه من هناك) وأشار بيده إلى جهة أخرى. نهض السكارى وصعدوا إلى رصيف الشارع المطلِّ على النهر ، حيث جموع الناس

جالسة هنا وهناك الضوء الثلجيُّ بدأ يكبر/يقترب رويداً رويداً ، يسير كنعشِ ملكٍ عظيم ، والنخيل خلفه بدا وكأنه المشيعون لهذا النعش. بدأت الأعين تطالع الضوء من بعيد ، بعد أن توقَّفتِ الجموع عن الحديث ، هناك مجموعةٌ من الطلاب كان صراخهم عالياً عن حال الامتحانات وهمومها خفتَ صراخهم ، ومجموعة متأنِّقة أخرى تتحدث عن السياسة وقفوا مندهشين يطالعون الضوء الآتي من بعيد. السكارى طبعاً حلّق الشراب من رؤوسهم كالعصفور ، وظلوا يحدّقون بالضوء ، الذي بدأ يكبر ويكبر حتى رآه الجميع ، سحابة ثلجية مخروطية ، قذفت الرعب في قلوب المتجمهرين. احد الواقفين خادع نفسه وقال مطمْئناً الجمع (لعلّه ضوء الطائرات الأجنبية التي تجول في سمائنا). تناوبت ضحكات هنا وهنا . وأسكته أصحابه بحجة انه (كسر وجوههم) بمنطقه الساذج. نبس آخر: لعله ضوء مصباح سيارة؟) فلم يشاطره احد. ارتفعت أصوات هنا وهناك منهم من قال نيزك ساقط/وآخر توقع أنه ملاك هابط/وآخر فسرَّه أنه لعنة ستصيب الأرض (وراح يستذكر بعض الأحاديث الدينية والروايات التي لا علاقة لها بالموضوع). ارتفعت أصوات الناس ، منهم من صلّى على النبي ، ومنهم من

غادر المكان ، ومنهم من طلب من رجال الأمن عمل أي شيء يفكُّ رموز شيفرة الحادث ،المشكلة إن رجال الأمن تسمّروا واقفين في مكانهم لا يقدرون حراكاً ، بل اكتفوا بسحب أقسام البنادق وتهيئوا لضرب هذه السّحابة بالرصاص. السّحابة الثلجية اقتربتْ من الجرف ووقفت على بُعْدِ أمتار معدودة ، مع حفاظها على ارتفاعها الذي كان يعلو على رأس النخيل. توقَّفت السّحابة الثلجية وكأنها تحدِّق بالناظرين في سخرية ، بينما تراجع الواقفون إلى الوراء عدة خطوات ، ليعلنوا خوفهم من هذه الحالة التي لم يصادفها احدهم في حياته .جماعة منهم بدأوا بمشروع استغفار وأدعية تنجيهم من اللعنة ، وجماعة أخرى اكتفت بالنظر والرهبة ، أما السّكارى وقفوا صفّاً ، وراحوا يتكلمون بعقلانية أكثر من أي واحد في ذلك المكان. اقترب احد رجال الأمن من تلك السحابة الثلجية ، وراح يصرخ بأعلى صوته ، قف ـ قف أقول لك ـ سأطلق النار) والسحابة الجامدة ، كأنها امرأة حبلى ينازعها الطَّلْقُ. لم تتحركْ ، ولم يرهبْها صراخُ الشرطيِّ الخائف.

النّهر الذي لولا مرضُهُ لقفز ضاحكاً على المتهالكين أمامه خوفاً ورعباً ، النّهر الذي أنهكه التعب حتى بدأ

يشعر بنهايته تقترب ، يطالع السحابةَ التي استلقت على صدره الشائخ ، وراحت ترنو إليه/تستنشق أنفاسه/تداعب وجهه بأناملها المضيئة هناك حوار جرى لم يفهمه الحضور ، حوار يكتنفُهُ الغموض والتساؤل إنَّه حوار الطبيعة الذي لم يفهم كنهه الإنسان الجاحد

بعد مرور عشر دقائق ، تحركت السحابة ببطء ، ارتفعت للأعلى ، بسرعة هائلة ، سرعة لم يرَ العالم لها مثيلاً ، حتى أنها وصلت إلى قلب السماء في ثوانٍ معدودة ، توقَّفت في قلب السماء ، والأبصار شاخصة إليها في رعب دفيق ، تريد أن تعرف ماذا سيحدث بعد هذا الاستعراض الرهيب انتقلت أبصار الحشود إلى الجهة الخلفية من السحابة ، ليلاحظ الجميع وجود طائرتين أجنبيتين كانتا في جول استطلاع ، وقد انتبهتا إلى السحابة فأقبلتا نحوها ، ولكن السحابة انطلقتْ شرقاً بلا توقف ، الطائرتان بما تتمتعان به من سرعة لم تستطيعا اللّحاق بالسحابة التي غابت عن الأعين بعد ثوانٍ قليلة

بدأ فوران همهمة وهسهسة وضحكات متناوبة بين المتجمهرين ، حين نبس أحد السكارى وهو يخرج (قنينة بيرة) من جيبه هاتفا بالرفاق: طلعت طيارة هاهاهاها) هناك رجع الجميع إلى أماكنهم ، إلى دوائرهم ، نقاشاتهم ،

سكرهم ، همومهم ، أشيائهم المريبة في الظلمة ولم يلتفتوا إلى النهر الذي ودّع السحابة بعد أن وضعت في كفّيه طفلها الذي أنجبته في حزم وسكون مهيب

القصة منشورة في "الف ياء" الزمان سنة ٢٠١١

القسم الثاني

قصص خطيرة جدا

حكاية الجندي المعلق

يوما ما ـ بعد أن تنفض الحرب عباءتها ويعمَّ الهدوء ، سأكتشف أنني فقدت يداً /رجلاً /صديقاً ولن يعرفني سواي حين أتكلم ، فالوجوه النيادرتالية لا تضع الماكياج في ثكنات الجند المكتظة بالخوف والدخانيوما ما ـ بعد أن تحزمَ الحربُ حقائبها ، سأرجعُ إلى قريتي ، فأجدني قد تزوَّجت كما أمروني ، وأنجبت حفنة أطفال ، وأجلس منزوياً في مقهى بليد ، أراقب ـ كما يراقب عالم الحيوانات غابته لن اصدق ، سأدلك عينيَّ طويلاً ، لقد تركتني في القرية طفلاً أبول في الشوارع ، وأتلصص خلسة على جارتنا فوق السطح ، ويعلو بكائي في الأعياد ؛ حين تنفد نقودي ، وحين يضربني أكثرُ الأولاد قوةً في الحي سأتعجب كثيراً ، لقد تركتني قرب سدرة ظليلة ، وساقية وديعة ، في بيت العائلة الكبير ، قرب جدَّتي ذاتَ الرائحةِ المألوفة وقصصها الشتائية الطويلة سأرمي حقيبتي

/أركض نحو داري ، ليستقبلني أخي الباحث عن عمل بأجر زهيد/ أبي المقعد /أمّي الملتصقة بسجّادة الصلاة/ زوجتي الشاحبة/أطفالي الباكون من الجوع. سأدقُّ الباب. أدخل ، لن يهتموا لدخولي/لن يعانقوني.سأُذهل حين أجدني معلَّقاً على حائط (البراني) .وقد الصقوا على جبيني ، خرقةً سوداء مائلة.

الفراشة والكاتب

رقبتُهُ المتدلِّية على الكتابة نبّهتْ يديه ليمرغها قليلاً ، رَفَعَ رأسَه الثقيل إلى أعلى ، فانتبه إلى فراشة صغيرةٍ تلعب حول المصباح ، غير مكترثة لضجيجِ الكلمات على الورق ، وازدحام الخيالات في رأس أتعبه الواقعُ. ظلَّ يراقبها /يحاورها /يستشعر إحساسها/ والفراشةُ تواصل اللعبَ والطيرانَ حول المصباح المضيء عاجلته رغبةُ النوم والراحة ، فاتَّجه نحو فراشه الفوضويِّ ، حين داهمه النعاس وغلّقَ عليه الأبواب هناك شيء واحد عكَّر مزاجه/ استفزَّهُ/ إنه الضوء ، إتجه نحوه وهو يطالع فراشته التي مازالت تلاعب الضوء منتشيةً أطفأ المصباحَ واتَّجه إلى سريره ، وغطّ في نومه تاركاً الغرفة تسبح في محيط الظلام ، غير آبه للفراشة الوحيدة ، التي ظلّت تطير هنا وهناك باحثةً عن دفء أو ضوء أخر ولكن بلا جدوى.

في اليوم التالي ، لم يفهمِ الأطباءُ المتجمهرون على

جثة الكاتب سبباً واحداً للوفاة ، سوى أنه مات مختنقاً فقط ، ولكنَّهم حين أخرجوه ؛ وتناولته يدُ الدَّفّان بعد حين ، لم يعلموا أنهم أنزلوا في القبر ، جثتين ، كاتباً مخنوقاً وفراشةً طرية.

* * *

الطفلة والبحر

أثارها ولعُ التّزحلق على صدره المتجمّد ، دفعتها الرغبةُ العنيفة على مغادرةِ اليابسة ، والتَّوجّه بلهفة إليه ، ذلك الذي أخفى باطنَه المليء بالهيجان والثورةً تحتَ سجادة بيضاء من الجليد ، لا يتحرَّكُ /لا يصفع بكفٍّ أمواجه وجه الساحل. حرَّكتْ قدميها متزحلقةً تدغدغ صدرَهُ العريض ، على مهلها راحتْ تحركُ أعضاءَها/تسيلُ الرغبةُ كالعسل على فمِ روحها الشفيفة ، تضحك على حذر ، وفي داخلها رغبةُ الصراخ نتيجة الدهشة المتصاعدة من فوَّهة وجدانها المكبوت ، و(الصامتُ) أخفى تحت لحافه الأبيض ، قلباً كبيراً أتعبه الغموضُ والرغبات اقتربتْ إلى فتحة صغيرةٍ في الجليد ، هي ثقبٌ بين عالمه وعالمها ، نظرتْ من خلالٍ الفتحة فرأتْ صورتها هناك ، تتحرَّك بفعل الموج المخنوق تحت الجليد شاغلتها صورةُ الطفولة في ذالك الثقب ، فظنت أن المكان هناك ادفأ

للعب مع طفلة أخرى. مدتْ الطفلةُ والصورةُ يديهما /تلاقتا/لا يفصلهما غير الماء/ داهمتها رغبةُ النزول إلى جوفه ، ومسك يد الطفلة الأخرى/ هناك نادى الأبُ الطفلةَ من بعيد ، فتراجعتْ مستجيبةً لصوته ، تاركة الصورة في جوف البحر ، الذي لم يفعلْ شيئاً ، سوى أنه أغلق الفتحةَ بالجليد ، واحتضنَ الصورةَ في جوفه ونام

اللوحة والرسام

الرسامُ القابع في غرفته المرميَّة في قعر الوحدة ، يطالع لوحته التي اكتمل المشهد فيها ، ولم ينقصْها إلا اللون

اللونُ الأصفر لوَّنَ به ما تبقَّى من وجه الشمس/ حقل سنابل/ جديلة حبيبته الضائعة/اللون الأزرق لوَّنَ به سماءً بلا بكارة/انهاراً تدقُّ كالمتسوِّل أبوابَ المدن/ خواتمَ العرّافين الفاخرة اللون الأحمر!) سأل نفسه في رجفة اكتسحته ، حين اكتشف أنّ اللون الأحمر لديه غير كافٍ لإكمالِ اللوحة التي طالعته هي الأخرى كطفلة لا تفهم الأعذار ، كفراشة تريدُ التحررَ من شرنقتها ، وتطير في سماء عينيه المتعبتين التأمّلُ أوقفه عن التلوين ، حين تسلَّلتْ فكرةٌ كالأفعى إلى جوفِ روحه العتيقة ، أشعرته بلذة أثيرية غامضة ، رجع بعدها إلى لوحته ليكملَ تلوينها بصمت في تلك الليلة

لم تكتملِ اللوحةُ في اليوم الثاني فقد جفّتْ كلُّ

تفاصيلها ، إلا لونها الأحمر ،لن يجفَّ حتى يُدْفَنَ الرسامُ ذو الشريان المذبوح.

* * *

عودة الكومينداتور*

حين ركل (الكومينداتور) الجدارَ بقدمه الساخنة ، كنت أجهِّزُ نفسي لإغواء قصيدة ناضجة. حين تقدّم نحوي عائداً من الجحيم ، لم اصدق إني لم استطع قتله بطريقة مُثلى. تقدّم نحوي وحجته الوحيدة هي الحجةُ ذاتها التي عاقب بها غيري. حين حملهم وعاد بهم إلى الجحيم الملتهبة حمرةً وصُراخاً. وقف المطالبُ بالتوبة أو الفناء ملّوحاً بيديه ، صارخاً بإسمي/ آمراً بتوبتي وردعي عن تزيين الكلمات ، وغواية الخيالات. القلمُ ذاته وقف خائفاً/صارخاً: أنا كلّي يرتجف سيدي) ، القلم /الخادم ذاته أغوى من أغوى /وخاتل وحالفني كثيراً على غواية القصائد. يالك من خادم خانع مرتعد ، لن أخاف هيبةَ

---

* الكومينداتور: باللاتينية تعني (القائد) ، في الفلكلور الاسباني الكومينداتور عاد من الجحيم لمعاقبة (الدون جيوفاني) الذي كان معروفاً بغوايته للنساء.

هذا العائد بوجه يكسوه الصّفيح الأسود ،المتصاعدة من على كتفيه أبخرةٌ رماديةٌ خانقة ، لن أفسح الطريق لهذا الليل المزعوم بالتّأويل ، فهناك ألاف الكلمات لم اغتصبْهنَّ بعد ، وهناك المزيدُ من الخيالات لم اغوِهُنَّ بعد ، وهناك دول من الجنون لم أفتحْهنَّ بعد الكومينداتور الغاضب يرعب الوقت بصراخه ومطالبته بتوبتي أو العشاء في الجحيم ، سأرفض دعوته المقيتة المليئة بالغطرسة والتكبّر الصوفيّ تبْ) يصرخُ ـ وأنا اصرخ (لا) ستموت) يحذّرُني ـ وأنا اضحك غير آبه للوعيد إذن ستحلُّ عليك لعنتي) هذه آخر جملة تفوّه بها قبل اقترابه نحوي بخطىً ثقيلة/واثقة ، لتخرجَ لي رؤوس شياطين الشعر وأرواح القصائد وأفواه الخيالات المعبئة بالضجيج الجحيميّ ، يقبل نحوي/بطوله /رعبه/ رائحته البارودية الخانقة/يمسك قلبي عاصراً إيّاه بقسوة ،يحملني على كتفه ويرجع إلى الجحيم متجاهلاً صراخي المخنوق

* * *

لعبة الأصابع

فتحتِ الباب و أزاحتِ الستارةَ عن النافذة ، فلامس رأسي كفُّ الشمس الدافئ ، بعد سبات ليلة باردة وضعتْ حقيبتها على الأريكة المقابلة لمكاني ، نثرتْ شعرها بأصابعها النحيفة الناعمة ، أصابعُ لا يُعْرَفُ سرُّ قوَّتها ، إلا أنا ـ أنا الوحيد الذي يفقه سرَّ تلك اللعبة الخطيرة جلستْ قبالتي ممسكة بحفنة أوراق تركتْها مبعثرة في الليلة الماضية ـ لقد كانت ليلة طويلة ومرهقة ، جالستني فيها ، وجاذبتْني أطراف الحديث ، وأعطيتها كلَّ ما املك من لغة روحية لم يكتشفها كائن ، ولم يبحْ بها عاشق ـ لملمت أطراف أوراقها ، وجالستني على مهل ،آلتْ على نفسها أن تضع وردة على رأسي قبل أن تفاتحني بسلامها ـ صباح الخير ـ

كالعادة تقترب مني أصابعها على مهل /تحرِّكني/ تدغدغني/ تقذفُ في بدني اللامع الحياةَ والحركة ، هناك بحر هائج في دواخلي لن يظهر من اللَّمسة الأولى ، بل

ينتظر الدور/الخطوة المقبلة/الحركة التي تداهمها وتأمرني لأنفذها في أيةِ لحظة ، عيناها لا تنفك تنظر إلي في شغف ، تغمضهما/تفتحهما ، مع كلِّ تنهيدة أو شهقة تصدر منّي أو منها بعد أن تصل إلى ذروتها المنشودة ، تحمل أوراقها /ترتدي سترتها /تغلقني/تتركني وحيداً/ كئيباً من دونها ، متعطشاً لها ، ولمرورها في إلهامها المقبل ، وللعبة أصابعها التي تداعب مفاتيح روحي الهامسة بالأنغام

* * *

طفلٌ وجدار

الطفلُ يكرَهُ الجّدارَ ، يَبصقُ في وجهِ أسمنتهِ الأحمق ، والجّدارُ يحتقرُ الطفلَ. يرجع الطفلُ إلى الخلف ، يهرول باتّجاه الجدار ، يضربه برأسهِ ، فيقع فوقَ الأرض ، والجّدارُ يبتسم كالأحمق مفتخراً بالقوة والطابوق. ينهض الطفلُ /ينفضُ التراب /يكفكف الدموع /يختفي بعيداً . بعد سنين يرجع الشابُ ، فيصادف جداراً شائخاً /متهرّئاً /وحيداً ، يركلهُ بقدم واثقة ، فيقع الجدار متهاوياً وقد صار كومة تراب . يَعبرهُ مكمِّلاً رحلتهُ التي أوقفها قبل سنين ، معلناً انتهاء حكم الحجارة

* * *

ستبقى وحيدا

المفعول به غاضبٌ من سيطرة الفاعل الأزليّة ، والفعلُ يكركرُ ضاحكاً خلفَ بنائه كالجبان ، يصرخُ المفعول به في وجه الفاعل: -جاء الوقتُ ليقع عليك فعلٌ ملـ) يصفعُ الفاعلُ مفعولَه واضعاً على رأسه فتحةَ الأسر متعلو ضحكاتُ الفعلِ تعلو-تعلو- تعلو-فتترقرقُ دمعةُ المفعول ، تنزل في هدوء ، يُخْرِجُ زفيراً حاراً ، يبتسم يضحك- تعلو ضحكاته - تعلو- تعلو- تعلو- يُخرجُ المفعولُ به فوّهةً نائمة ، يقتلُ الفعلَ المختبئَ وراء بنائه ، صارخاً في وجه الفاعل : ستبقى وحيداً - ستبقى وحيداً) هذه آخر جملة قالها المفعول به قبل أن تعانقَ الرصاصةُ رأسَهُ المفتوح.

* * *

ابي ـ أمي

الطفل: - أبي انظر إليّ كيف ارسم.

الأب: -ـــــ

الطفل: -أمي انظري إلى رسمي لقد أخذت درجة كاملة

الأم: - ـــــ

الطفل : - أبي لم تعطِني نقوداً في العيد كي أذهب إلى الملاعب

الأب: - ـــــ

الطفل: - آه ـ أمي ملابسي متَّسخة أريدك أن تنظفيها

الأم: - ـــــ

الطفل: - لا تحزنا فمن الآن فصاعداً لن أزعجكما بكلامي أبداً.

تنادي المربّيةُ الطفلَ ، يهرع إلى اللعب مع أصدقائه في دار الأيتام تاركاً صورتين على السرير.

* * *

الأغبياء

في طريقٍ طويل ، وقف رجلٌ يحملُ بندقيةً متخمةً بالصبر والبارود انبطح على الأرض مصوباً فوهتها إلى الإمام ، لأنهم اخبروه أن الموتَ يأتي من خلف التلال البعيدة ، مرتدياً عباءةً سوداء ، ويخفي وجهَه خلفَ قناع ملطّخٍ بالظلام مرَّ الوقتُ وشيكاً ، والرجل منبطحٌ لسنواتٍ على ذلك الطريق ، لم يغلقْ جفنَه ، ولم يحرّكْ جزءاً من جسده الملقى كسجادةٍ تراثيةٍ متعبة سرتْ قشعريرةٌ مخيفةٌ في تفاصيلِ جسده ،حين أحسَّ بشيء يلامسُ رأسَه من الخلف فَتُرتْ يداه/انتصبَ واقفاً/ أدارَ رأسَه ببطء ، فانتبه لفوَّهَة ، غُرِستْ بين عينيه اللتين تبعثرتا بعد ثوانٍ ، بطلقة رافقها البارودُ والدخان

حينَ وقعَ الرجلُ على الأرضِ صريعاً ، عبرَ جثتَه الموتُ الذي استمرَّ في مسيرته ضاحكاً ومعربداً ، يبحثُ عن غبيٍّ آخر سيقتله غدراً على الطريق

* * *

سارقُ الأطفال

في قريةٍ وديعةٍ هادئة ، طفلٌ يعيشُ مع أمه وأبيه ، أرعبه خبرُ الشبحِ الذي يُداهمُ القريةَ كلَّ ليلةٍ ليسرقَ طفلاً من دون أن يشعرَ به الجميع. كيفَ يسرقُ هذا الشبحُ طفلاً يتوسّدُ حنانَ أمه ويلتحفُ ذراعَ أبيه؟ في أية ساعة؟ في أية لحظة؟ في كل ليلة كان الوالدان يحرسان ابنهما. ليلةً يسهرُ الأبُ حتى الصباح ، وليلةً تسهرُ الأم .في تلك الليلة فتحَ الطفلُ عينيه ليصعقَ بوجهِ الشبحِ ذي العين الواحدة ، والأنياب التي تومض في جوفِ الظلام وبيديه اللتين تشابكت في مقدمتهما الأظافر المعَوجّة. وهما تتجهان صوبه لتسرقه غيلةً. تلفّتَ الطفلُ يميناً وشمالاً فلم يجدْ أباه ولا أمه ، أين هما؟؟) سأل الطفل نفسه بعد أن وضعه الشبحُ على كتفه ليهمَّ خارجاً من النافذة. حاول الطفلُ الصراخَ ، صرخ عالياً (أمي–أبي). ولكن صوتَ تأوهاتِ الوالدين

وصريرَ سريرِهما في الغرفة المجاورة ، كانا أعلى من صوتِ طفلٍ ذي لسانٍ راجف ، وعينين يملأهما الدمع والصراخ.

* * *

المتلصّص

منذ صغره آلف الإختلاءَ بنفسه ، ومداعبةَ رجولته خلسةً ، أعوامٌ تمرُّ ، صيف /شتاء/ ليل/نهار /سعادة/ ألم/ والمتوحّدُ منهمكٌ في خلسته مداعباً في كل مرةٍ رجولتَه حتى الوصول إلى ميناء الإسترخاء

تزوجَ أخيراً ، وحطَّمَ بيديه أصنامَ الحيرةِ والرغبةِ المكبوتة ولكنه فشلَ في الليلة الأولى /تقاعسَ في الليلة الثانية/ صمَّمَ في الليلة الثالثة/ تردَّد في الليلة الرابعة/ انهزمَ في الليلة الخامسة/بكى في الليلة السادسة/ توحَّدَ في الليلةِ السابعة ، حين تلصَّصَ من ثقبٍ في باب الحمّام على زوجته ، وهي تغتسل ، مداعباً رجولته ، التي استفزَّها منظرٌ قديم

* * *

الوجه

يرعبني /ينامُ في شعري /يتلبسني /يسرقُ بكارةَ الأشعار ورجولةَ القلم يأتي في كل ليلة ، لابساً عباءةَ الظلام ، حاملاً تحتها قلائدَ الدموع ، وأمنيات محنطة ، ورجفَ لساني حين كنت أأخذ درجةً قليلةً في درسِ الحيلة والدهاء يحملُ بيانو صغيرة ، وصورةَ طفلة كنت اعشقها ولا تدري ، وعطرَ معلمة كنت أتحسسه خلسةً في شعرها كل صباح حين اركضُ هارباً منه ، أجده أمامي في كل مرة ينفخُ في النخيلِ فيعدو رافعاً طرفَ سبّاحه يصرخ في وجهِ المنازل فتنحني خائفة يشربُ الأنهار ويأكل الصحراء كالرغيف سأصارعه سأقتله) هكذا صمَّمتُ وأقسمتُ حين وصلتُ بعد ثلاث وثلاثين سنة إلى وجهه المليء بالظلام ، ركلته ضحك ، بصقت على وجهه فلعق البصاق متلذِّذاً حاولت خلعَ قناعه فلم استطعْ هناك أيقنتُ قبلَ خنقِه رقبتي ببرود قطبيٍّ انه (وجه يلبس وجه الليل).

* * *

جمهوريةٌ بلا معنى

الأسماءُ أعلنتْ الثورةَ على اللاشيء الأفعالُ أعلنتْ مقاومةَ الخائنين ، الحروفُ أعلنتْ أنها في حياد وستكون مع الأقوى. إشتبكَ المحاربون منذ صباحِ اللغة ، حين قدّمت الأسماءُ فيلقَ المبتدأ والخبر ، فصدّتْ الأفعالُ الهجومَ بصواريخِ أفعال ناقصة.تسلّلتْ كتيبةٌ من أفعال ماضيةٍ إلى موقعِ الأسماء فذبحتها على الطريقِ ميليشياتٌ يقودها الفاعل. والحروفُ تتفرّج ولا تتدخّل أبداً ، لأنها تنتظر المنتصرَ لتنظمَّ إليه بلا حربٍ. أخيراً لم يبقَ في ساحة المعركة إسمٌ ولا فعلٌ. وامتلأتِ الساحةُ بدماءِ الماضي والحاضر والمستقبل ، وأشلاءِ الممنوعين من الصرف ، ومن قاموا بالفعلِ ومن وَقَعَ عليهم يوماً فعلٌ.

في اليوم التالي إجتمعتْ الحروفُ وأسّستْ جمهوريةً خاليةً من المعنى.

* * *

المتسكعون

الصبيةُ المشاكسون /المتسكعون في شوارع الضّياع ،
لم يصادفوا في حياتهم سدرةً مثل التي في حيّنا ، ولم
يَذُقْ طعمَ ثمرها واحدٌ منهم في درب حياته المتصحِّر ،
تجمهروا حولها /أرادوا إذلالها وسرقة ثمرها /لم يفلحوا ؛
فراحوا يرشقون وجهها الملائكي ، بأحجار مبعثرة تناثرت
من رأس الصنم في ساحة الجحيم

* * *

أنظروا إلى التلفاز

المقهى المتثائب في آخر الحي ، يعاني من مهاترات المتفرجين على لعبة تعيسة المنظر ، والمعلومة النتائج . اللعبةُ تشتدّ حماستُها ، يقفُ المتفرجون ذعراً وهلعاً (فالمقهى شُطِرَ إلى نصفين بين مشجعي كل فريق).

تنتهي المباراةُ /يتقاذفُ المشجعون بالتفاهات/العنتريات المتراكمة في شوارع عقولهم كالنفايات. يشتدّ النزاعُ فيتحولُ إلى عراك بالكراسي/بالطاولات/بالأقداح ،في وسط الضجيج يعلو صوت :انظروا إلى التلفاز-انظروا إلى التلفاز).يطالعُ الجميعُ التلفازَ ، اللاعبون يتبادلون التحية والمجاملات المعلبة.

* * *

مرض الإنسانية

هناك إنسانٌ واقفٌ على بابِ إحدى العيادات الطّبيَّة الفاخرة ، ينتظرُ الدورَ إلى فحصٍ طبيٍّ ، يرنو إلى الأبواب الصامتة ، لافتات واختصاصات وشهادات لأفضل الأطباء طبيب القلب/ العين/الصدر/ الـــالـــ/ والإنسانُ كما تدّعي الجماداتُ يعاني من (مرض الإنسانية).

لم يفعلْ شيئاً سوى أنه أشعلَ سيجارةً ، وخرجَ من العيادة ضاحكاً بصوت عالٍ.

* * *

البراءة والقلادة

قال له صديقُهُ الماكرُ ذو الأعوام العشرة -أدفنْ قلادتَك في التراب سنأتي إليها غداً ؛ نستخرجها و قد تحولت ذهباً. عادَ الطفلُ في اليوم التالي إلى مكان دفنِ القلادة ، فلم يجدها ، وقف حائراً /باكياً لا يعرفُ أين اختفتْ؟!

صارَ عمُرهُ ستينَ سنة وهو يلومُ براءته التي ضيّعتْ القلادة

* * *

الصياد والسمكة

الصّياد البائس الذي أنهى ثلثي حياته مهرولاً في درب الضياع والأماني الفارغة ، جلس هذه المرَّة لاختبار حظه ، حيث دسَّ صنارته في قلب الشاطئ الصامت كالقبر ، وهو ينتظر فجر حظه الغائب غمزتْ الصنارة/أخرجها ملهوفا ، وإذا بها سمكة مليئة بالتقرّحات /الجروح/ الكدمات/ الصَّدمات النفسية والضياعات ، سألها مابك) أجابتهُ لقد عشت ثلثي حياتي في بؤس وشقاء ، من فكٍّ سمكة كبيرة إلى فكٍّ سمكة أكبر ، وها أنت فسحت لي المجال لأستنشق رائحة الحياة في درب صنارتك المميت ، أرجوك لا ترجعني إلى الماء ، وفرّقني لحماً في بطون البشر واصنعْ لي من معَدِهم ملاذا) سرح الصيادُ كثيراً ، طافت على كعبة خياله الأفكار العارية لم يفعل شيئا سوى أنه رمى بالسمكة على الجرف وهي تتقلّبُ فرحاً

بعد ثلاثة أيام أنتشل المتجمهرون على الشاطئ جثَّةً طافيةً

شبحان

كلاهما يحدّقُ في الأخر ،هو والشيطان جالسان على طاولة متهرئة ، يملأ المكانَ دخانٌ /عتمة/ضوءٌ خافت مُتدلٍّ من السّقف ، وعواءٌ لذئب بعيد ، يُسري قشعريرةً في جسد الليل المنهك. هو يبكي/الشيطانُ يضّحك ، هو أبلجُ كالصبح/وقرينه حالك كالديجور ، هو طفلٌ /وهذا يقتنصُ فرصةً لذبحِ الطفولة ،لم يبق له على طاولته القابعة سوى (كش ملك) يرددها الشيطان في كل لحظة.مع كل نفس يخفت في رئة الخاسر المخنوقة.

ينهضُ الاثنان ، يتصافحان ، يخرج من الكوخ النائم شبحان أسودان ، تحالفا على افتضاض بكارةِ مدينةٍ فاضلة.

* * *

في تلك الليلة

جفافُ شفتيه ورغبتُه في مفارقة سريره العتيق ، دفعاه في الساعة الثالثة بعد منتصف العمر ، إلى التّوجّه نحو الثلاّجة القابعة في زاوية الصّالة المنزلية ، بلَّلَ ريقَه الملتهب برشفات متقطعة من الماء ، راشقاً الساعة المعلقة بنظرة خافتة ، ومن ثَمَّ واصل مسيرَه نحو غرفته الصامتة ، تسمَّر في مكانه حين تفجَّر في أذنيه صوتُ طرقات خفيفة وبطيئة على بابه الخارجي ، مثيرةً في جوفِ شعوره جيشاً من الأسئلة من الذي يأتي في هذه الساعة المتأخِّرة .؟) سأل نفسه وهو متَّجهٌ في ذعرٍ ناحيةَ الباب مخاطباً من خلفها في حذر وترقب :

من.؟ من الطارق.؟

بادره صوت خفيض :

أنا

من أنتِ

طفلة

هل تمزحين؟

أرجوك أنا تائهة

من سقاكِ التيه؟

!

أنا محرومة

من حرمكِ ..؟؟

!

أدخلني

لا اذهبي بعيداً

لا استطيع

لا تستطيعين؟؟لماذا ..؟

لأني طفولتكِ

* * *

البائع المتجول

حينَ أوقفَ الغريبُ بائعَ الأوطانِ المتجوّل ، وسأله عن وطنٍ زائد للبيع ، أجابه البائعُ ببرود :

فتّشْ في العربةِ لعلكَ تحصلُ على وطنٍ يفي بالحاجة.

فتّش الغريبُ ، فوجد وطناً بلا عينٍ ، وآخر بلا ساقٍ ، وآخر بلا رأس. سأله :

هل يوجد لديك وطنٌ كامل.؟ أجابه البائع :

لقد بيعت كلها ـ آسف. اين كنت يا رجل ـ؟

أجابه الغريب :

كنتُ في سوقِ (الهرج) ، أبيع وطني المشلول.

دعوني أغرد

أعوامٌ والبلبلُ يغرّدُ على شجرةٍ في حديقة ، حين رجعَ البلبلُ ذات يوم ، وجدَ الحديقةَ صارتْ مركزاً لبيع أشرطة الأغاني الـسـخيـــ؟؟!بعد أيام وجدوا البلبلَ معروضاً للبيع ،في محل للحيواناتِ المحنطة

* * *

اليوم السابع

تملؤهُ سعادةٌ غامرة بشرائه حاسوبه الجديد ، متَّجهاً لمنزله القابع في آخر الحيّ ليُدوّنَ في ذاكرته الالكترونية حاجياته/أشواقَه/أحاسيسَه/ومشاعَرهُ الدفينة المتوهجة

اليوم الأول: فشلَ في ترتيب صور أيامه الغابرة

اليوم الثاني: لم يستطع تعلّم حذفِ الملفات المحزنة

اليوم الثالث: خرج منذ الصباح تاركاً الحاسوبَ وحيداً

اليوم الرابع: أقسمَ على تدوينِ مشاعره المتلهّفة

اليوم الخامس: ذاكرةُ الحاسوبِ تعاني عطلاً في التخزين

اليوم السادس: الترابُ يملأ الحاسوبَ ، وبقايا لسجائر مبعثرة على الطاولة

اليوم السابع: يُخْرِجُ الناسُ من المنزلِ حاسوباً فارغاً ، وتابوتاً مملوءاً

الفهرس

باعدني عن عالم القص أكثر من عقدٍ من الزمان كتابة ، لكني كنت فيه أتحرى في موقع القصة القصيرة في عالم السرد الروائي الذي انفتح بشكل مثير بعد 2003 ومع أن هذا العالم الذي يبدو صغيراً أمام السرد بإمكاناته الفنية المختلفة إلا أنه من الأصالة يستطيع فيه البقاء أمام المد الآخر ، و"عودة الكومينداتور" للقاص أنمار رحمة الله، لها في هذا المجال حضورها الجدّي ، رؤية ورؤيا ، في تجلياتها المختلفة وهي تطرق أبواب الواقع بطريقتها ، وإن اختلفنا في تقييمها ، لكنها تنبيء كثيراً عن ولادة شخصية لقاص يستطيع ابتكار موضوعاته وتشكيلها بحس جمالي ولغة يمكن أن تسهم في صياغة وعي القص في تشكيل فني ،على القاص أنمار رحمة الله أن يغذيه كثيراً وصولاً الى تأسيس تجربته وتأصيلها.

وارد بدر السالم

تطرح هذه القصص تساؤلات وجودية طالما تصدّت لها السردية العراقية والعربية والعالمية،لكن هذا لا يعني الاجترار، فتجربة أنمار رحمة الله تمزج بين لغز الموت والسؤال الذي أنهك الإنسان، وبين الطمع الأعمى ممثلا بنهاية قصة "العائد" التي تصدرت قصص هذه المجموعة، ومع أجواء القصص الكابوسية التي تذكرنا بالاسلوب "الكافكوي"، ينساب السرد برفق وكأنه يتناغم مع المبنى الحكائي المشبع بالموت ورائحة القبور، كذلك يضعنا القاص وجهاً لوجه أمام ملحمة الجوع والالم والحرب والموت مرة أخرى، كما نقرأ في قصص "الرغيف" و "العراة" و "المقبرة"، إن الموت والقبور والتطلع الإنساني العاجز عن اكتناه مغزى الوجود ملامح تشكل أجواء السرد هنا، حيث نجح القاص بتجربته الأولى في تجاوز فخ السذاجة الفنية والفكرية التي قد يقع فيها الكتاب الأول لكثير من كتاب السرد.

علي حسين عبيد

إذا كان من البديهي القول ،إن الكتاب الأول الذي يمثل البداية لأية تجربة أدبية ،لايسلم من بعض الهنات ،سواء في استهلاله ،أو متنه،أو خاتمته،وتلك سمة يكاد يشترك بها معظم الأدباء.فإن ما يحسب للقاص "انمار رحمة الله" في مجموعته القصصية البكر هذه،هو تخطيه لعتبة البدء بنجاح،وذلك متأتٍ من اختياره لمواضيع مغايرة،وسبكها في قالب سردي محكم ،إضافة إلى الصياغة المتقنة لنهايات القصص المتمظهرة والمتجلية في رسم المشهد القصصي لإثبات أن (كيف) التناول تتفوق على (ما) المتناول.

حامد فاضل

في هذه المجموعة، للقاص أنمار رحمة الله، ثمة مزيتان فاعلتان: اشتغال واع واختيار ذكي. الاشتغال الواعي، من جهة أولى، يتمثل في الوحدة الفنية للقسم الأول. إذ انبنت نصوصه، إجمالا، على مفارقات للتوقع، بثا وتلقيّا، تعاضدها فنطازيات مبررة ونهايات مفتوحة. أما الاختيار الذكي، من جهة ثانية، فيكمن في القسم الثاني. إذ جُعل عنوان أحد نصوصه، التي وصفت بـ"خطيرة جدا" إنزياحا عن "قصيرة جدا"، عنوانا جامعا، هنا، تأكيدا لأهمية هذه النصوص رغم قصرها. وكلتا المزيتين الفاعلتين، هاتين، تؤشران استجابة مطلوبة من "عودة الكومينداتور" لاشتراطات السرد القصصي: بنيويا وتقنيا وجماليا وثيميا.

بشير حاجم

تموز للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق/ جوال: 00963-944628570
Email: akramaleshi@gmail.com

الغلاف: صفاء مرزه